الميـــــاه

اهتم العرب بموارد المياه اهتماماً كبيراً، مصدره افتقار البيئة التي يعيشون فيها لهذا العنصر. لذلك عنوا عند بدء حركة التدوين في القرنين الثاني والثالث الهجريين بدراسة ما يتعلق بموارد المياه، فأفردوا في معاجمهم، التي وضعت على طريقة الموضوعات، أبواباً للبئر وآلاتها (العسكري ١٣٥٢، ج٢: ٤٤٠-٤٤٨؛ الثعالبي ١٣١٨: ١٨٢-١٨٣؛ ابن سيده ١٣١٨، ج١٠: ٣٤-٤٨). ويعتبر ابن الأعرابي -فيما نعلم- صاحب أول كتاب مستقل عن البئر، جمع فيه الألفاظ التي توصف بها الآبار في حفرها، واستخراج المياه منها، وقلة تلك المياه وكثرتها، وأجزاء البئر وأنواعها وأسماء كل نوع، وأنواع المياه الخارجة منها، وآلات استخراج المياه من الآبار كالبكرة، والحبال، والدلو وما إلى ذلك (ابن الأعرابي ١٩٧٠: ٦). كما عُني العرب بوسائل استنباط المياه الخفية أو الجوفية، واستدلوا على وجود المياه بعلامات يعرفونها على وجه الأرض تتمثل في لون الأرض ونوع الأحجار وتوفر أنواع معينة من النبات، كما اخترعوا الآلات اللازمة لاستخراجها. وبيَّنوا أن من لم يعرف على وجه الأرض علامات المياه الخفية كان ناقصاً في صناعته (الكرخي ١٣٥٩: ١٣).

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب المواضع الواردة في كتب الشعر والمعاجم العربية المتعلقة بجزيرة العرب، هي في الواقع أسماء لموارد المياه. وما أكثر ما يتكرر في معجمي البكري وياقوت الحموي قولهما بعد ذكر اسم الموضع: وهو ماء لبني فلان. كما أن أسماء تلك المياه غالباً ما تكون ذات دلالة تشكِّل أرضية ظاهرة، كالعُمق أو التَّلَجُّف أو الاتساع أو مقدار المياه وغير ذلك.

ويمكن تصنيف المياه إلى قسمين هما: المياه الجوفية والمياه السطحية.

المياه الجوفية

وقد صنفها العرب في ثلاثة أنواع هي:

المياه الأصلية. أي الساكنة في جوف الأرض لا تزيد بزيادة الأمطار ولا تنقص بنقصانها ولا تتغير حالها إلا بشيء قليل، قد غمرت أكثر جرم الأرض بحسب وجود الخلل والمنافذ فيه. ولا يقل هذا الماء في فصول الجفاف وسنوات الجدب... وإذا كانت الأرض مختلفة التربة ذات موانع صلبة وحواجز حابسة للماء، صار هذا الماء في موضع في قعر قريب وفي آخر في قعر بعيد (الكرخي ١٣٥٩: ١٥-١٦)، أي أنه في حالة وجود طبقة غير منفذة تعلو مستوى الماء الباطني، تقوم تلك الطبقة بتكوين مستوى ثانوي للماء الباطني يعلو المستوى الأساسي. وقد يوهم هذا الوصف أن المقصود بالماء الأصلي هو المياه المطمورة أو الحفرية fossil؛ أي تلك المياه التي بقيت خلال الصخور الرسوبية إبَّان تكوينها. فمثل هذه المياه، وإن كانت لا تتأثر بالتغيرات الفصلية وسنوات الجدب، إلا أنها تتأثر على مر الزمن بالاستغلال

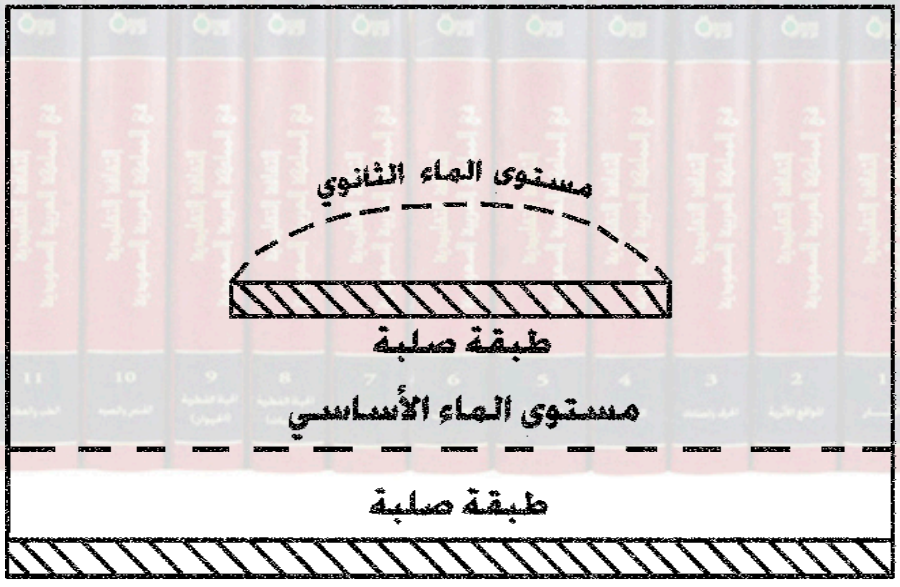

المستوى الثانوي، والمستوى الأساسي للماء الباطني

حيث يعتبر استثمارها عملية تعدينية. فالاسم ربما كان منطبقاً فعلاً على المياه الحفرية إذا ما افترضنا ضآلة استثمار تلك المياه قديماً.

المياه المتحولة. وهي ما تكون مادتها استحالة الهواء (أي ما به من بخار) إلى الماء في بطن الأرض ويدوم جريه ما بقي السبب الذي به يستحيل الهواء إلى ماء (الكرخي ١٣٥٩: ١٦). وقد فَصَّل الكندي القول عن هذا الماء، وبيَّن أن ذلك يرجع إلى تكثف بخار الماء المحتبس في باطن الأرض حين يتصل بالجو الخارجي عند حفر بعض الآبار، قال «فإذا استحال الهواء بارداً، وعدم الحرارة، صار عنصراً بارداً رطباً، وهذا هو الماء. وقد يعرض في القُلُب البعيدة العمق مثل ذلك، فإنه إذا صادف الحفر موضعاً عذباً أو حجرياً غير مستحيل الكيفية أو الشبوية أو ما أشبه ذلك من الكيفيات الدالَّة على الحرارة، أو انتهى إلى طينة عذبة حُرة، واشتَّد برد الموضع الذي انتهى إليه الحفر، استحال الهواء الذي فيه ماء» (الكندي ١٩٥٣، ج٢: ١١٤).

المياه الجوية (ماء التوأب). ومادة هذا الماء من ذوبان الثلوج والأمطار وأكثر عمارة الأرض به، لأنه أصل الأودية العظام والعيون والقُنِيّ. وهذا الماء يفيض في خلاء الأرض حتى يبلغ حاجزاً مسطحاً فيقف هناك، فإذا أنشئ فوق ذلك المانع مجرى، جرى الماء على قدر قوته، وهذا الماء يسميه أهل الصناعة ماء التوأب. ولا يتغير طعمه كما يتغير طعم مياه البحار والعيون الواقفة والمستنقعات على وجه الأرض، لأن الماء الظاهر تأخذ الشمس عذوبته ورقته فَيَتَخَثَّر ويتغير طعمه، وفي بطن الأرض لا يَعْرِض له ذلك (الكرخي ١٣٥٩: ٧).

وميز العرب بين الأرضين التي يحتمل وجود الماء بها عن غيرها من الأرضين الجافة أو القليلة الماء، بمجموعة من العلامات (الكرخي ١٣٥٩: ١٢-١٣) منها أن كل أرض متعلقة بأصول الجبال الموصوفة فهي ذات ماء. والمقصود هنا هو منطقة أقدام الجبال، وإذا اتصل بأصول تلك الجبال صحاري فأكثرها ماء هو ما قرب من المركز، أي أن المناطق المنخفضة يُنَال الماء فيها في قَعْر قريب، وخصوصاً إذا كان الخلل في تربتها كثيراً، فإذا تشابهت تربة تلك الصحاري المذكورة كان الماء في جميعها على صفة واحدة أو في مستوى واحد لا تتفاضل إلا قليلاً، وأقربها إلى المركز أقلها عمقاً. ويدل وجود النبات الطبيعي وكثرته على قرب الماء، بخاصة إذا وجد

على النبات نداوة وطل بالغدوات، وكذلك إذا كان على الأحجار نبات. وبَيَّن الكرخي في مكان آخر أن ظل الأشجار على الأرض يحميها من حرارة الشمس. كما أن رؤية مسايل السيول ظاهرة على وجه الأرض، متصلة بشعاب الجبال والأمكنة المرتفعة عنها وليس لها منها مخارج، يدل على وجود الماء بها. وكذلك رؤية البخار الكثير على وجه الأرض صباحاً، أو الضباب أو النداوة. والحجر الأسود إذا كان ذا أطباق في الصحاري والجبال. وكذلك الحجر المختلف الكثير المتبدد في وجهها، والحجر الأبيض المتفرق، والصخور القائمة كأنها ناتئة.

موارد المياه الجوفية

ويرتبط بالمياه الجوفية أربعة أشكال تضاريسية تردد ذكرها كثيراً في كتب العرب لكونها من الظواهر الأرضية المهمة، ولها ارتباطها الوثيق بحياة الناس ومعاشهم، وهي: العيون والأفلاج والدحلان والآبار.

العيون. واحدتها العين التي يجري ماؤها. ذكر الكندي أن بطون الأرض تقبل الماء على وجهين (الكندي ١٩٥٣، ج٢: ١١٢-١١٣): أولهما الماء النازل من العلو والواصل إلى بطون الأرض بالنَّشَف، والثاني الداخل من وجه الأرض من خُروق المغارات التي في بطونها، أي الأودية التي في بطون الأرض. ويكون خروج تلك المياه إلى سطح الأرض لمعنيين اثنين، إمَّا بالرَّشْح أو الانفجار. وهنا فرَّق الكندي بين نمطين من العيون، أولهما العيون المُتَوشِّلة، وهي التي يسميها أصحاب اللغة الأوْشَال، وهي أن ترشح المياه إلى بركة ظاهرة. أما إذا كانت باطنة، فانتهى الحفر إليها سميت قَليبا، وإن كان ظهور الماء فيها رَشْحَاً نَزّاً سُمِّيت حَسْيًا، والحَسْيُ ما قرب من وجه الأرض. أما ما بعد عنه فيسمى رَكِيًّا. وسوائل هذه الرُّشوح -أي الباطنة- تسمى عيُناً بالاسم المستعار. أما النمط الثاني فهو العيون المتفجرة. وتكون بانفجار المياه طبيعياً من بطون الأرض فتسيل وتسيح على وجهها وهي التي تسمى في اللغة العيون والينابيع بمعنى واحد. وفي الكتاب العزيز ﴿... حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ (الإسراء: ٩٠)، وجمع العين أَعْيُن وعُيُون.

فالعيون المتوشلة أو الأوشال، واحدها الوَشَل بالتحريك أي الماء القليل يَتَحلَّب من جبل أو صخرة يقطر منه

قليلاً قليـلاً لا يتصل قطره، وقيل لا يكون ذلك إلا من أعلى الجبل، وقيل هو ماء يخـرج من بين الصخر قلـيلاً قليـلاً والجمع أَوْشَال. ومن الأسـماء المرادفة للأوشال أيضاً المَذْوعُ والفَزِيز. فالمَذْع كمـا ذكر ابن منظور في لـسان العرب هو سيـلان العيون التي تكون في شَعَفات الجبال. وهو البذْع أيضاً – بالباء– ويطلق على قطر حُبِّ الماء. أما الفزيز فقد جاء في لسان العرب بمعنى الوَشَل في مادة «وشل» ولم يفسر في مادة «فز» إلا أن يكون بمعنى فَزَّ الجرح يَفِزُّ فَزيزا إذا سَال بما فيه والفزيز سيلان العـيون مـن الجبـال. والأوْشَال مـن الأضْدَاد، فكما تطلق على الماء القليل الذي يقطـر قطرة قطرة، تطلـق أيضاً على الماء الكثـير الذي يستفاد منه في الزراعة. فقد جـاء عن أبي حنيفة أن الأوشال مياه تسيل من أعراض الجبال فتجتمع ثم تساق إلى المزارع.

وتكثر الأوشال في غرب شبه الجزيرة العربية في وسط جبال الحجاز وجنوبها. ويؤكد عَرَّام بن الأصْبَغ السُّلَمي في رحلته ما ذهب إليـه أبو حنيفة، مـن أن المياه التي يعـتمد عليها سـكان إقليم تهامـة والحجاز هي عيون أو أوْشَال أو بُثُور أو قِلاَت. وذكر أن الوَشَل ماء يخرج من

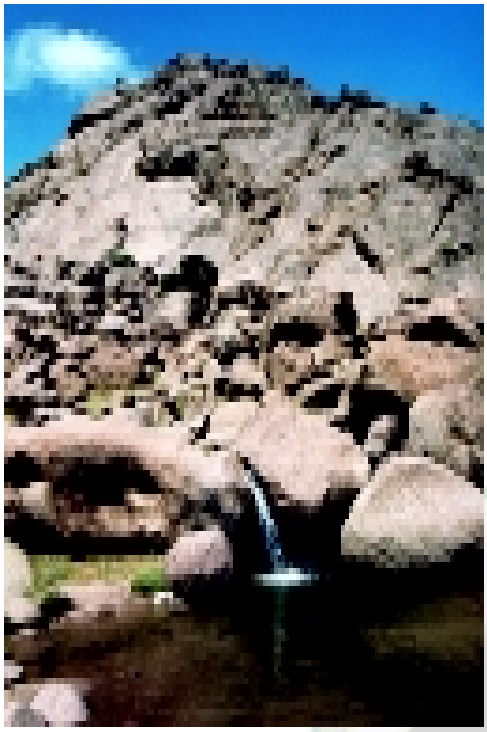

الوشل

شَاهِـقة لا يـطورهـا أحد ولا يـعرف مُتَفَـجَّرها، وتوجد تـلك الأوشَال في جبـلي رَضْوَى وعَزْوَر، وهـما جبلان شاهقان منيعان لا يرومهما أحد، بينهما قدر شوط فرس، ويـقعان شرقي يَنْبع البحـر، وترى كتلة جـبل رضوى من مسافة بعيـدة. كما توجد الأوشال في جبل وَرِقَان وفيـه أيضاً عُيون وقِلاَت، وكذلك الحال فـي معظم جبال السَّـراة (السلـمي ١٣٧٣، ج٥: ٤٢). ويقول الحموي إنه توجد أوشال في دَمَاخ من جبال حِمَى ضَرِيَّة.

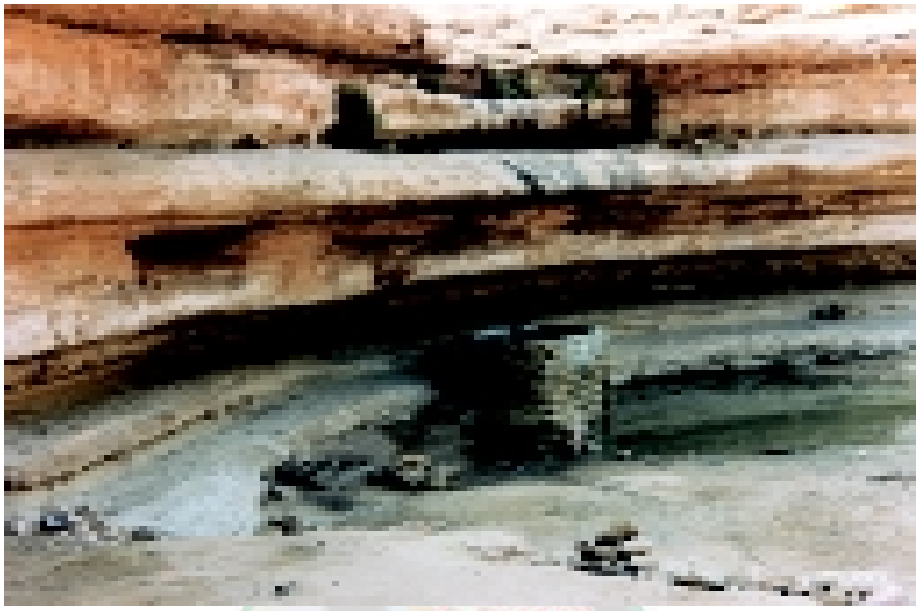

النّباع (نبع أبو قاطور – حوطة سدير)

والوَشَل أيضاً عَلَمٌ على عدة جبال في جزيرة العرب، وربما سُمِّي الموضع باسم الجنس وهو جبل عظيم بناحية تهامة، والوشل ماء لبني سلول بن عامر بن صعصعة في جبل يقال له الضُّمْر، والوشل ماء قريب من غَضُور وَرُمَّان، شرقي سَمِيراء، وفيه قال أبو القَمْقَام الأسدي:

اقرأ على الوَشَلِ السَّلاَم وقُل لَهُ
كُلُّ المَشَارِبِ مُذْ هُجِرَت ذَمِيمُ
جَبَلٌ يَزِيدُ عَلَى الجِبَال إذا بَدَا
بَيْنَ الرَّبَابِعِ والجُثُومِ مُقِيمُ

والوطل: ماء ينطف بقطرات قليلة ودائمة–أي نضاح ويكون له حوض صغير يستقر فيه ترد عليه الطيور والحيوانات وقد يجد فيه القانص ما يكفيه وإذا كان كثيراً فقد يملأ منه القربة ويكون في صدور الجبال والهضاب وهو كثير في جبل ثهلان والسرف ماء يتسرب من الجبل في مجرى منحدر بصفة دائمة ولا يبلغ حد الجريان لضحالته وهو موجود في هضب الدواسر وثهلان. والنباع ماء ينبع بين الصخور ويكون على قطرات قليلة ودائمة وهو كثير في جبل ثهلان (ابن جنيدل ١٣٩٨، ج١: ٢٨).

أما العيون المتفجرة فقد ميز الكندي بين نوعين منها هما العيون الفَوَّارة وتكون بانفجار الخروق من الأرض، وفَوَران

الماء أي جَيَشانه من العين (الأزهري، ١٩٦٤، ج١٥: ٢٤٧). والعيون الخَرَّارة، وهو ما انحط من مياه العيون من أعلى إلى أسفل، فكان لجريه صوت خريري وهذا أبلغ العيون. وذلك لشدة حركته وجريه. والخَرَّارة في كلام العرب عين الماء الشديدة الجريان، سميت خَرَّارة لخرير مياهها وهو صوته. والعيون المتفجرة هي التي سَمَّاها ابن سينا بالعيون السيَّالة التي تنبعث من أبخرة كثيرة قوية الاندفاع كثيرة المادة تُفَجِّر الأرض بقوة انفجارها ثم لا تزال تفيض مستتبعة موادها. وميز بينها وبين مياه العيون الراكدة التي لم يبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها طرداً ويدفعه ويسيحه (ابن سينا ١٩٦٥: ١٣). ويمكن القول إن النوع الأول من العيون قد انتهى نتيجة انخفاض مستوى المياه الباطنية بعد حفر الآبار الأرتوازية والزيادة في استغلال المياه. أما العيون في الأماكن المرتفعة كما في السراة فلا تزال غنية بالمياه. أما النوع الثاني فيتمثل في عيون الأفلاج في الإقليم المسمى بذلك الاسم جنوب الخَرْج.

وتعتبر المنطقة الشرقية من المناطق التي تكثر بها العيون الطبيعية. وتوجد تلك العيون في واحتي الأحساء والقطيف، حيث تتفجر من طبقات الجير الرملي (النيوجين) التي تعلو الخزان المائي الأيوسيني. وتتميز هذه الطبقات بعدم الاستمرار في خواصها الصخرية وأعماقها وخواصها الفيزيائية من حيث الكثافة. وينعكس ذلك على المياه الجوفية التي تحملها هذه الطبقات، ومن المتعذر تحديد التدرج المائي والكيميائي لتلك الطبقة، لتباينها من حيث الطاقة المائية ودرجة الملوحة والضغط من منطقة لأخرى. وتستثمر هذه الطبقة المائية على نطاق واسع من واحة الأحساء بواسطة آبار السبر، حيث تتميز بالتدفق وقلة الملوحة نسبياً (١٤٠٠ ملليجرام في اللتر)، ويعتقد بأنها مصدر أكثر الينابيع السائدة في المنطقة المذكورة. أما في واحة القطيف فاستثمارها على نطاق ضيق لعدم تدفقها وزيادة ملوحتها (٣٠٠٠ ملليجرام في اللتر)، ولتوافر طبقات مائية أعمق ذات مواصفات أفضل.

ويطلق على العيون والينابيع الحارة التي تنبثق من جوف الأرض الحمّة جمعها الحمّات. وتصل درجة حرارتها إلى ما يقرب من ٦٠ درجة مئوية، وقد تحتوي على مواد مذابة وعالقة، ويغتسل بمائها طلباً للاستشفاء.

ففي الأحساء عين نجم ولعل تسميتها ترجع إلى الظن أنها كانت موضع مسقط لنيزك، فهي في هوة منخفضة من الأرض، ماؤها يجري تحت سطح الأرض، وهو شديد الحرارة بحيث يهابه المرء حتى ينغمر فيه شيئاً فشيئاً، ومع شدة حرارة الماء وبعد منبعه يوجد فيه آثار لا تكون إلا على سطح الأرض، كبعر الحيوانات أو ما أشبهه.

ويتخذ أهل الأحساء من حرارة تلك العين علاجاً لبعض أمراضهم ويستحمون فيها.

ولهذه العين ذكر في تاريخ الأحساء، ففي سنة ١٢٥٥ عين محمد أفندي أميراً للأحساء من قبل خورشيد باشا وخالد بن سعود، وقد طلب محمد أفندي من أحد أعيان الأحساء من آل ملحم أن يزوجه ابنته فاعتذر بحجة أنها

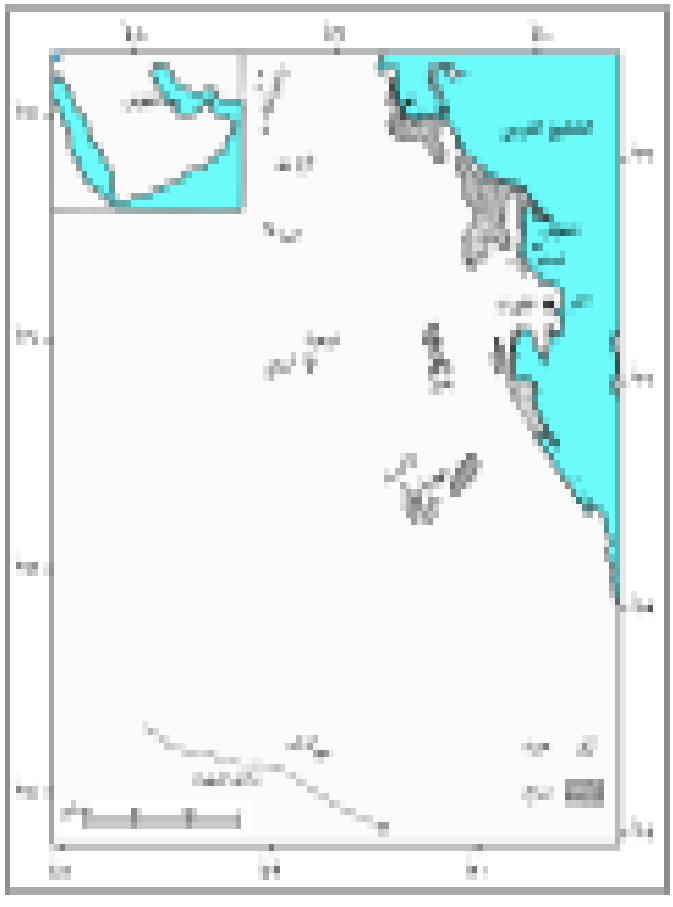

خريطة توزيع العيون في المنطقة الشرقية

معقود عليها لابن عمها المسافر إلى الهند. فلم يقبل محمد أفندي عذرهم بل أرادها منهم جبراً، فكمن له ثلاثة رجال وهو عائد من عين نجم بعد المغرب ومعه خمسة من الفرسان يحرسونه، فلما وصل إلى عين أم خريسان أطلق الكمين النار عليه دفعة واحدة فأردوه قتيلاً.

ولعلماء الأحساء مساجلات شعرية في هذه العين، من ذلك قول أحدهم:

ياعين نجم فُقْتِ آبار الحسا
بحرارة وبخار ماء يصعد

وتقع العين في براح من الأرض، كانت البادية تنزل إلى جانبها في الصيف، كما يرتادها الناس للنزهة (الجاسر ١٤٠١، ج٣: ١٢٣٦-١٢٣٧).

وفيها عين أم سبعة التي سميت بهذا الاسم لأن ماءها يجري في سبعة أنهر، وتحيطها الرمال من الشمال والغرب، والنخيل من الشرق والجنوب. وماؤها عذب صاف، وهو شديد الحرارة لا سيما في أيام الشتاء، يفد إليها الناس للاغتسال والنزهة. ويعتقد حمد الجاسر أنها هي نهر محلم.

وينص الهمداني على أن محلما هو نهر البحرين، وأن هذا النهر بأرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم (الهمداني ١٩٧٤: ٣٤٣-٣٤٥). وفيها يقول الشاعر:

رعى الله يوماً قد طوينا نهاره
بكثبان رمل زينتها الجداول
تجود عليها دائماً أم سبعة
بماء كبلور جلته الصياقل

(الجاسر ١٤٠١، ج٣: ١٢١٤).

وعين الجوهرية من أقوى عيون الأحساء وأعذبها وأصفاها ماء، وتقع بقرب قرية البطالية. قال فيها ابن المقرّب:

فخير لعمري من بساتين مرغم
على ذي المجاري طلح نجد وشوعها
ومن ماء نهر الجوهرية لو صفا
ذبابة حسي لا يرجَّى نبوعها

ومرغم محلة في الأحساء، وذبابة الشيء بقيته.

ويتفرع من الجوهرية عدد من المجاري تسقي البطالية والكلابية وجليجلة والشعبة (الجاسر ١٤٠١، ج٣: ١٢١٤).

وعين حَنِيذ تقع شرقي الضُّبْطية إلى الغرب من الأحساء، وعليها بيوت ومزارع (ابن بليهد ١٩٧٢، ج٣: ١٢٦). قال عنها الأزهري: وقد رأيت بوادي الستارين من ديار بني سعد عين ماء عليه نخل زين عامر، وقصور من قصور مياه العرب، يقال لذلك الماء حَنِيذ. وكان نَشِيلُه حاراً

فإذا حُقِن في السِّقاء، وعُلِّق في الهواء حتى يبرد وتضربه الريح عذب وطاب.

وهناك أيضاً عين خُدَد التي وصفها ياقوت بأنها عين بهجر، والأصل فيه خُدَّة، وهو الشَّق في الأرض. وهي من أكبر العيون الفَوَّارة المعروفة بالأحساء، وتسمى اليوم بالخُدود. وتتفجر المياه من عمق يصل إلى ما يقرب من ١٥٠م خلال طبقة الجير الرملي (النيوجين). وكان يبلغ تصريف العين عند أقصى حد للمنسوب حوالي خمسة أمتار مكعبة في الثانية الواحدة، أي ما يعادل ٣٦٠ ألف مليون جالون في السنة. ويبلغ تصريفها عند خفض المنسوب حوالي ٣ أمتار مكعبة في الثانية، بما يعادل حوالي ٢٥٠ ألف مليون جالون في السنة. وتنصرف مياه عيون الأحساء بعد استغلالها في الري قديماً إلى شرقي الواحة في بحيرة قَدّر الأزهري مساحتها بثلاثة أميال في مثلها (نحو ٢٤كم^{٢}). قال: ولا يَفِيض ماؤها، وماؤها راكد زعاق.

وفي القطيف عين الكعيبة وهي من أشهر عيون سيهات تبعد عن قرية الجشة نصف كيل. وعين أم الفرسان تنبع في قرية تاروت، من تحت آثار قلعة قديمة ومجراها مطوي بصخور. أما عين أم المجالس فتقع بين قريتي القديح والعوامية وتروي أراضي القديح.

إحدى عيون الخرج

وبالقرب من مدينة صفوى تقع عين داروش، وهي أكبر عيونها وتروي أراضيها.

وفي نجد تكثر العيون في منطقة الأفلاج والخرج والسر وغيرها. ولا شك أن تعاقب سنوات الجدب وكثرة حفر الآبار الارتوازية قد أثر على مستوى الماء في هذه العيون فتوقف جريان معظمها، وأصبح ماؤها يستخرج بالمضخات، وبعضها نضب تماماً وانمحت معالمه.

ومن أهم هذه العيون في منطقة الخرج عين دغرة أو خفس دغرة، ماؤها تحت الأرض ويستخرج بالمضخات. وعين الضلع وهي أكبر عيون الخرج، وقد انخفض مستوى الماء بها ويستخرج الآن بالمضخات. وعين فرزان وقد اندرست تماماً.

وهناك عيون في منطقة نجد اندرست منها عين خشم الحصان قرب رغبة، وعين ضرما القريبة منها. وفي القصيم عين ابن رميح وعين ابن هذال وعين الحمزة وعين العقيلي. أما عيون السر فكانت عامرة وكان أهلها يسقون منها النخيل والمزروعات، غير أنها الآن أهملت واعتيض عنها بآبار ارتوازية. ومن أهمها عين الصوينع، وهي نبع من أرض طينية سهلة عذبة المياه شمال غرب هجرة الأرطاوي وغرب روضة مطربة،

قناة فرزان

وقد توقفت. وعين ابن قنّور، والبعض يسمي هذه العين الجنيفاء وكانت تسمى عين ابن سرحان، كما تدعى أم الظلة، والظلة صيهد رمل يضفي ظله عليها وتنبع من جانب أسفل وادي القرنة من الشرق. ومن العيون الأخرى في السر عين الروسانية والريشية وصعيبات وغيرها.

وفي مكة المكرمة عين زبيدة التي تنحدر من نعمان إلى مكة، وقد قامت زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد رحمهما الله بإيصالها إلى عرفات ومزدلفة وقرب منى، وجعلت لها في هذه المشاعر بركاً كبيرة وأقنية بنهايتها بركة عظيمة حول منى، قال عنها بعض المؤرخين إنها من الأبنية المهولة، وعين الزيمة. وفي الطائف عين المثناة، وعين الوهط والوهيط، وعين شبرا، وعين أم قرون تمر بسوق عكاظ، وعين الحوش وغيرها في تبوك عين السيكر وعين أم سبعة.

ومن عيون المنطقة الجنوبية العين الحارة في بلاد بني مالك وماؤها معدني، وأخرى بالاسم نفسه وتعرف أيضاً بالبزاة على طريق جازان العارضة، والحارة أيضاً في جهة الخوبة من بلاد بني الحرث، والعقدة تنبع في غرب جزيرة فرسان (العقيلي ١٣٩٩: ٣٠٣).

ويصف الناس المياه بأوصاف تدل على حالته واستساغتهم له مثل: عذب وقراح، أو الهماج بين العذب والمالح

عين الزيمة

وللمالح أقرب والدمج ماء أقل ملوحة من الهماج.

ويوجد عدد من العيون في سراة غامد وزهران من أهمها: ذي عين في منتصف عقبة الباحة وعين ابن الطويل وعين الخلي في عقبة بني حده وعين المزرعة في بني كبير.

الأفْلاج. الأفلاج جمع فَلَج، بالتحريك، وهو الماء الجاري من العين. وبه سمي إقليم الأفلاج الذي يعد من أشهر أقاليم نجد الجنوبية، وعاصمته مدينة ليلى. وجاء في المخصص: الفَلَج هي الساقية التي تجري إلى جميع الحائط أي بستان النخيل. وقال الهمداني: الفَلَج من العروض ويسمى فَلجا لانفلاجه بالماء أي انفتاحه (الهمداني ١٩٧٤: ٣٠٤). وحَدَّه أبو عبيد البكري بقوله «ووراء المَجَازةِ فَلَج الأَفْلاَج، وهو ما بين العارض (جبال طويق) ومطلع الشمس، تصب فيه أودية العارض وتنتهي إليه سيولها، وليس باليمامة ملك لقوم خلصوا به مثلها، وهو أربعة فراسخ طولاً وعرضاً مستديرة. ويقول الكلابي إن سبب تسميته بِفَلَج الأفلاج أنه أفلاج كثيرة وأعظمها هذا الفلج، لأنه أكثرها نخلاً ومزارع وسيوحاً جارية، وعدَّ ستة أفلاج أخرى، ثم فسر المراد بكلمة فَلَج، فذكر أن كل ما يجري سَيْحا من عين فهو فَلَج، وكل جدول شُقّ من عين على وجه الأرض فهو فَلَج. وأما البحور والسيول فلا تسمى أفلاجاً. وقد أسهب الهمداني (١٩٧٤: ٣٠٤)، في الحديث عن هذه المنطقة، قراها وأوديتها وعيونها، ويبدو أن المقصود من قرية الفَلَج، التي أشار إليها الأصفهاني بأنها قرية عظيمة بها نخيل ومزارع وأنهار، مدينة ليلى القريبة من العيون. ويدل على ذلك وصفه لإحدى العيون هناك وهي عين الذَّبَّا التي يخرج منها -على ما ذكر- سبعة عشر نهراً، وهي شبه خَسْفة في الأرض وهي في غَضْراء (الأصفهاني ١٩٦٨: ٢٢١-٢٢٢). والغضراء كما جاء في لسان العرب هي الأرض السهلة الطيبة التربة العذبة الماء. وقيل الغضراء المكان ذو الطين فيها النخل حتى تحفر، وأعلاها كذانٌ أبيض، والكذان الحجارة التي ليست بصلبة. وقيل حجارة رخوة إلى البياض. وهي صفة للصخور الطينية أو الجيرية المنفذة للماء. وتنطق عند العامة بالثاء.

ومن النصوص السابقة يمكن القول إن القدماء قد أحسنوا وصف هذه المنطقة وعيونها، وأن المقصود بِفَلَج الأفلاج

المنطقة القريبة من مدينة ليلى حيث توجد أكبر عيون الأفلاج، وتتألف من مجموعة من العيون عددها حوالي ١٧ عيناً أهمها عين الراس المعروفة قديماً بعين الناقة وتبلغ مساحتها حوالي (٢٨٠,٠٠٠م٢ ومتوسط عمقها ٢٨م وأعمق نقطة قيست فيها ٤٢م). ومنها عين أم هيب وسمحه وأم برج وغيرها. وعيون الأفلاج ليست عيوناً فوارة، كما هو الحال في المنطقة الشرقية، بل أشبه ما تكون بالبحيرات الراكدة، ويحيط بها نباتات النَّصي والحَلْفاء، وتقع في منخفض من الأرض وسط تكوينات من الكلس والحجر الجيري. وقول الأصفهاني عن إحدى العيون إنها شبه خَسْفة في الأرض صحيح، لأنها في الواقع ظاهرة كارستية كان لقرب المياه الجوفية من السطح أثره في ظهورها على النحو المذكور، ويؤكد ذلك وجود انهيارات مستمرة لحافات تلك البحيرات. وتبدأ تلك الانهيارات على شكل شقوق فوق سطح الجروف المحيطة بها، خصوصاً من جهتها الشرقية حيث يصل عرض بعض تلك الشقوق إلى حوالي نصف متر. وليس هناك أي تناقض في تفسير القدماء للسبب الذي من أجله سميت الأفلاج بذلك الاسم، فقد تفرد الهمداني بقوله «إن الفَلَج سُمِّي فَلَجاً لانفلاجِه بالماء» وهو وجه في تفسير

إحدى عيون الأفلاج

تلك التسمية، أما الوجه الآخر الذي عليه عامة أهل اللغة، فهو قولهم إن الفلج هو الماء الجاري من العين. وهذا هو أصل التسمية إذ أطلقت على تلك القنوات السفلية التي تنقل مياه العيون إلى البساتين القريبة. والأصل فيها القناة أو الساقية الرئيسية التي تجري إلى بساتين النخيل، كما قال ابن سيده. وتدعى تلك القنوات السفلية بالأفلاج في أكثر من منطقة من شبه الجزيرة العربية، إذ توجد في شمال القصيم في منطقة الأسياح، ولعل إطلاق الاسم على المنطقة سببه كثرة الأفلاج بها، ويكفي ما قاله الأصفهاني إن ما يخرج من عين الذَّبَا فقط سبعة عشر نهراً.

ومن عيون الأفلاج المذكورة (البرج، أم هيب، سمحة) تجري ثمانية أفلاج لتسقي أربعة منها بساتين السَّيْح الجنوبي،

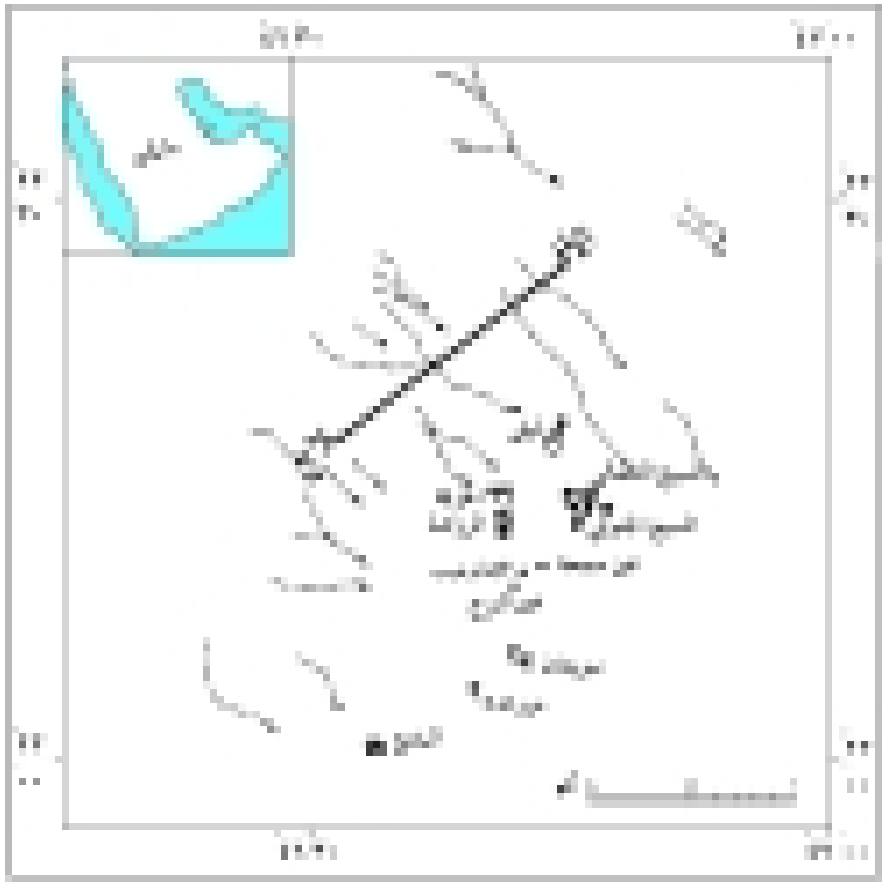

خريطة عيون الأفلاج

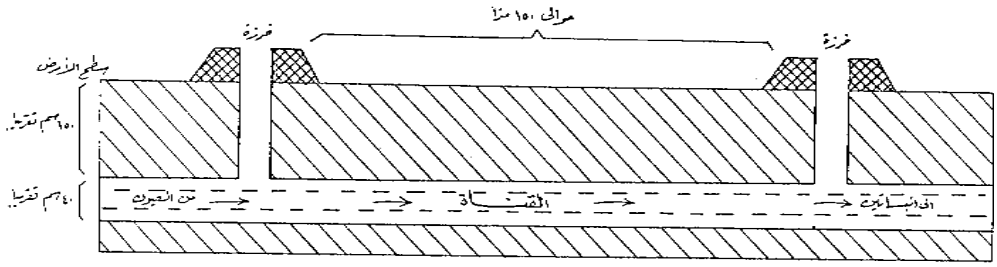

رسم تخطيطي للفلج

وأربعة أخرى هي: بساتين السيح الشمالي، ويبعدان عن العيون نحو خمسة أكيال. وتوجد بجانب تلك العيون مجارٍ عميقة مكشوفة، يبدو أنها تستخدمً للصرف. أما الأفلاج المستعملة، فهي قنوات محفورة على عمق متر تقريباً من سطح الأرض، بقطر يبلغ نحو ٤٠سم. وتوجد على طول القناة فتحات رأسية تسمى الخَرَز تستخدم في تنظيف المجرى في حالة انسداده، وهي في هذا تشبه الكِظَامة وجمعها كَظَائم، وهي كما جاء في لسان العرب آبار مُتَناسقة تُحْفَر ويباعد

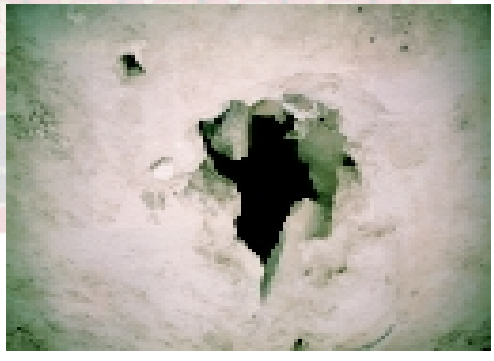

فتحة المراقبة للتنظيف في إحدى الخرزات

ما بينها ثم يُخْرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدي من الأولى إلى التي تليها تحت الأرض فتتجمع مياهها جارية ثم تخرج عند منتهاها فتسح على وجه الأرض. وهي في هذا تشبه الأفلاج.

ومن المؤسف أن الإسراف في استنزاف المياه الجوفية وحفر الآبار الارتوازية قد أثر على مستوى مياه هذه العيون الآن فاختفى بعضها تماماً وانخفض منسوب مياه بعضها الآخر انخفاضاً كبيراً جداً.

الدحول. والدُّحْلاَن والدِّحال والدَّحَائِل والأَدْحَال، كلها جمع دَحْل، وهو نقب في الأرض ضيق فمه متسع أسفله، أو هوة تكون في الأرض وفي أسافل الأودية منها ضيق ثم تتسع حتى يمكن المشي فيه، وقد ينبت الشجر في داخلها. والدحول تجاويف في باطن الأرض تفيض فيها مياه الأمطار أو السيول، ويتم الدخول إلى الماء من الفوهة

التي نزل فيها السيل وقد يمتد المجرى ويتعرج ويتسع ويضيق بحيث يستطيع الداخل الجلوس فيه وأحياناً لا يدخل إلا زحفاً (الجاسر ١٤٠٠، ج٢: ٦٧٣-٦٧٤). وهو ضرب من الأشكال الأرضية الناتجة عن الإذابة فوق سطح الحجر الجيري أو الطباشيري أو الحَمَاد. وتتراوح أشكالها بين منخفضات طبقية الشكل، يصل قطرها عدة أكيال وعمقها بضعة أمتار، وحفر ضحلة لا يتعدى قطرها بضعة أمتار. والمصطلح المستخدم للدلالة على هذه الظاهرة اليوم هو الحفر البالوعية ترجمة لكلمة Sinkholes. وهو تعبير غير دقيق، فالبَالُوعة أو البَلُّوعة - لغتان- عند العرب كما جاء في لسان العرب بئر أو حفرة تحفر في وسط الدار، ويضيق رأسها، يجري فيها ماء المطر ونحوه. وتنتشر ظاهرة الحفر هذه بأعداد كبيرة في إقليم الصمان في شرق المملكة، خاصة بالقرب من معقلة، حيث يزيد عدد الدُّحلان، بين صغير وكبير، على مائة دَحْل في مساحة لا تتجاوز ١٠٠كم٢.

وقد ورد اسم الدحل على لسان عدد من الشعراء الأقدمين، كامرىء القيس والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سُلْمَى وغيرهم، وأفضل من شرح معناه من اللغويين الأزهري -كما جاء في معجم البلدان- الذي مَرَّ بتلك الدحول ودخلها ووصفها بقوله «وقد رأيت بالخلصاء ونواحي الدهناء دحلانا كثيرة، وقد دخلت غير دحل منها، وهي خلائق (أي حفر) خلقها الله تحت الأرض، يذهب الدَّحْلُ منها سَكَّاً في الأرض قامة أو قامتين أو أكثر من ذلك، ثم يَتَلَجَّف (تنهدم جوانبه) يميناً أو شمالاً، فمرة يضيق ومرة يتسع في صَفَاة مَلْساء لا تحيك فيها المَعَاولُ المُحَدَّدة لصلابتها. وقد دخلت منها دحلا فلما انتهيت إلى الماء، إذا جو من الماء الراكد فيه لم أقف على سعته وعمقه وكثرته لإظلام الدحل تحت الأرض، فاستقيت أنا وأصحابي من مائه، لأنه من ماء السماء يسيل إليه من فوق ويجتمع فيه».

ومن نص الأزهري نستنتج أن لفظ الدَّحْل ينصرف إلى تلك الحفر المتعمقة في طبقات الحجر الجيري، بسبب مياه الأمطار التي تسربت خلال الشقوق والمفاصل حتى وصلت إلى الطبقات الخازنة للمياه وأذابت المادة الجيرية بما تحتويه من غاز ثاني أكسيد الكربون. وبتوالي عمليات النحت السفلي بتأثير المياه الجوفية وتغلغل مياه الأمطار من السطح تتسع مسارب المياه ويتكون ما

يشبه المغارات التي تنتهي غالباً إلى مستوى الماء الباطني. ونظراً لطبيعة تكوينه فإن الدحل يتلجف ويتجه يميناً أو شمالاً تبعاً لطبيعة الصخر. ويتوقف امتداد الدحل على قوة عامل النحت وهو المياه «فمنها ما يكون سبعين بوعاً ومائة بوع تحت الأرض وأقل وأكثر» (الهمداني ١٩٧٤: ٢٨١).

وقد ذكر الشعراء وأصحاب المعاجم وكتب البلدان دُحلاناً كثيرة، منها دحول هَبالة ودَحْل العِيص ودحل السَّمُرات ودحل فِتاخ وأدحال دَبَّاب ودحل خُرَيشيم وغيرها. وأغلب هذه الدحلان موجودة في الصمان. وأشار الهمداني إلى أن تلك الدحلان هي موارد المياه في الصُّمان. وهي شقوق عميقة مُخَرَّقة في جَلَد الأرض يكون فيها الماء (الهمداني ١٩٧٤: ٢٨١ ، ٣٣٣). وتقع معظم الدحلان في هذه المنطقة عند جوانب المنخفضات التي ترصع سطح الصَّمان والتي تبدو في حجم الروضات. والفرق بين الروضات التي تنتشر أيضاً في هذه المنطقة، وبين تلك المنخفضات هو تريِّض الماء في الروضة ومُكْثِه بعد سقوط المطر، مما يعمل على ازدهار الحياة النباتية فيها. أما منخفضات الدحلان فينصرف فيها الماء سريعاً نحو فتحة الدحل ويغور فيها.

وعلى هذا ربما كانت تلك الرِّياض والخَبْرات المنتشرة فوق سطح الصَّمان الجيري مرحلة من مراحل تكوين الدَّحل. وفي الحقيقة فإن الدُّحُول موجودة في معظم أجزاء هضبة الصُّمَّان شمال وادي السَّهْبَاء، ولكنها تتركز في هضبة الصُّلْب.

وتشغل هضبة الصُّلْب أكبر جزء من هضبة الصُّمَّان، وهو الجزء الأوسط منها. وهي هضبة ذات سطح متموج شاسع يتكون من صخور فتاتية قارية من العصور المايوسينية والبلايوسينية، وسطح الهضبة كثير التلال المتطامنة التي تتكون من حجر أم رَضَمَة الجيري شديد الكارستية والقابلية للذوبان وظاهرة الكارستية هذه موجودة تحت السطح وسطح المنطقة أصبح وعراً من كثرة الحفر المتعمقة ذات الكهوف التي تسمى دحولاً. وهذه الدُّحُول بعضها مفتوح إلى أعماق تزيد على خمسين متراً، كما توجد دحول ذات كهوف أفقية على أعماق متنوعة مثل دحل أبو مروة.

ومن أشهر الدحلان القريبة من معقلة اليوم أبو طَقَّة ويقع شمالي معقلة بحوالي كيل واحد وكان من مصادر المياه. وقد اندفنت فوهته إلا أن المياه تتسرب إليه من خلال مسام الرمال التي

تغطيها. ويرى عبدالله بن خميس أن اسمه أبو طِقَّه بكسر الطاء وتشديد القاف المفتوحة، والطقة الفتحة الفرعية غير الباب الرئيسي ومنه طقة الجربوع (نافقائه) وتدعى بالعامية قصعه ونطاقة وهو الباب المخفي الذي يعده للطوارىء. ودحل الهِشَامي وهو من الدُّحلان الكبيرة، ويقع جنوب غربي مَعْقَلة، وكان حتى وقت قريب من مصادر المياه المهمة. ودحل فِتَاخ الذي يقع جنوب معقلة بحوالي ثلاثين كيلاً وهو من مياه العرب المعروفة قديماً، ذكره ذو الرُّمة وقَرَنَه بِحُزْوَى في قوله:

لمية إذ مي مغان تحلها
فتاخ فحزوى في الخليط المجاور

وحُزْوى عُريق من الرمل إلى الشمال من فِتَاخ يرى بالعين من عنده. وبالقرب من فتاخ بضعة دحلان، يبدو أنها جميعاً متصلة الأسافل مع فتاخ ويبدو أن معظم دحلان المنطقة متصلة بعضها ببعض عن طريق المياه الجوفية، التي تسير تبعاً للانحدار العام لسطح شبه الجزيرة العربية والطبقات الرسوبية نحو الشرق والشمال الشرقي في هذه المنطقة.

ويلاحظ صلابة جوانب فوهات بعض الدحلان ونعومة ملمسها حتى تبدو كالرخام كما هو الحال في فوهة دحل فتاخ المذكور. وقد أثبت التحليل المعملي لقطاع رقيق من فوهة ذلك الدحل أن كبر حجم البلورات وتمام بلورتها يرجع إلى حدوث عملية تعرف بإعادة التبلور بعد تمام عمليات الترسيب، وأن الحجر الجيري لتلك المنطقة قد تعرض لمحاليل دافئة أدت إلى بلورة مكونات الصخر من جديد، فيما يعرف بتغيرات ما بعد الترسيب. وربما كانت هذه المحاليل الدافئة، التي أدت إلى صنع ذلك الشكل، ناشئة عن صعود المياه على شكل فوارات أو عيون من فوهات تلك الدحلان في أزمنة سابقة، مما يوحي بوفرة مياه المنطقة قديماً، أو أن يكون ذلك نتيجة تكرار انسكاب بعض المياه المستخرجة من الدحل على جوانب الفوهة، ويؤكد الظن الأخير وجود آثار الأرشية واضحة على جوانب دحل فتاخ الذي أخذت منه العينة.

وفي غير هذه المنطقة دحلان أخرى تختلف في شكلها -إلى حد ما- عن الدحلان السابقة مع كونها أكبر حجما.

ويعدّ دحل هيت من أكبر الدحول وأشهرها، ويقع جنوب شرق مدينة الرياض بحوالي ثلاثين كيلاً، وهو على شكل كهف عظيم متعمق في جبل هيت، وهو جال ممتد من الشمال الغربي

إلى الجنوب الشرقي. ومن المحتمل أن دحل هيت يماثل الخسف الذي حدث في أواخر عام ١٩٦٢ في محافظة المذنب في منطقة القصيم. ويظن أنه تجويف حدث بسبب إذابة المياه الجوفية للكلس في هذه البقعة، وتبع ذلك انهيار السقف انهياراً تاماً عند المدخل وانهياراً جزئياً في سائر الخسف فوق هذا الجزء المذاب. ولابد أن كثرة الفواصل المتقاطعة في هذا الكلس وجيوب الجبس التي تتخلله هما العاملان اللذان أدَّيا الدور الأول في إحداث هذا الخَسْف (Abul-Haggag 1963:266). ومن واقع الدراسة المقارنة التي قام بها أبو الحجاج للخسوف الأخرى الموجودة في منطقة المذنب، اتضح له أن خسف عين العقيلي الواقع على بعد نحو كيل واحد إلى الشمال من المذنب، لا يفترق عن خسف المذنب إلا في أن السقف هنا قد انهار انهياراً تاماً، وأن الخسف ربما زاد اتساعاً بعد مدة عن اتساعه الأصلي. ورجَّح أن خسف المذنب المائل سيتخذ شكل هذا الخسف القديم نفسه في المستقبل حتى يصبح حوضاً مفتوحاً تماماً (Abul-Haggag 1963:272-275). وقد ألقى ذلك البحث الضوء على أصل الظواهر المماثلة الأخرى الموجودة في هضبة نجد مثل دحل هيت وعيون الخرج والأفلاج. ويبدو أن

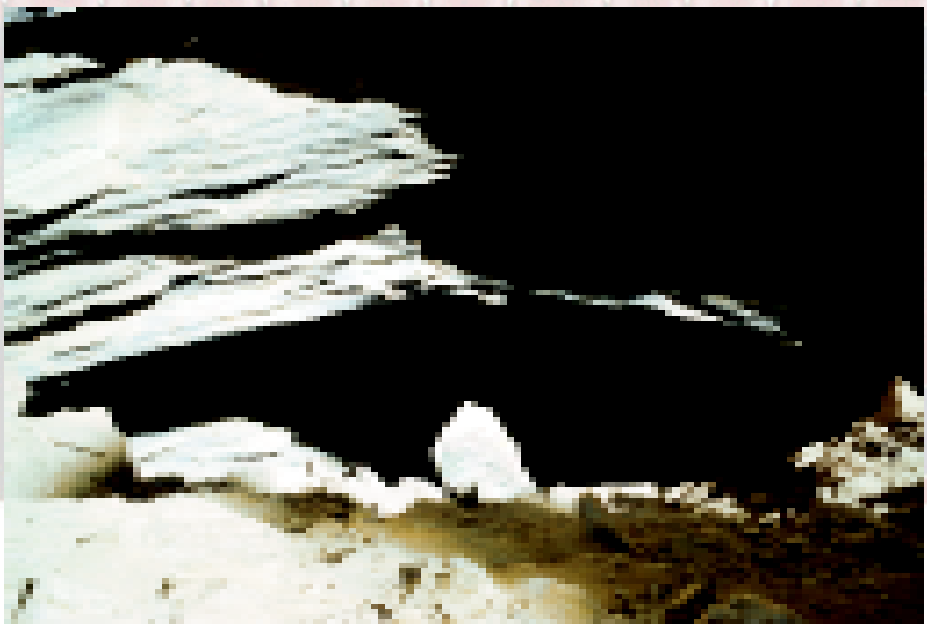

دحل هيت بين الرياض والخرج

قصد الأصفهاني عند حديثه عن عيون الأفلاج، وأنها شبه خَسْفة في الأرض، مقارنتها بعيون الخرج التي تسمى اليوم الخفوس ولعل التسمية قلب لكلمة الخُسُوف وتستعمل الكلمتان في اللهجة الدارجة بمعنى واحد. وكانت الدحول مصدراً رئيسياً من مصادر المياه في المناطق التي توجد بها وخصوصاً الصمان حيث تقل أو تعدم الأبار في بعض أنحائها. قال الشاعر الشعبي:

ياوجودي عليهم وجد من فاطرٍ له
غره القيد منها في فروعً المضامي
فوقها قربته وشداد مع مزهب له
وأصبحت جرة القشرا غطاها العسامي
في الحتيفه خلاوي والدحل ما يدله
ولا حواليه من يعطيه حمض العلامي

أما اليوم فقد هجرت معظم الدحلان، ولم تعد مورداً للمياه كما كان عليه الحال قديماً، فقد استعاض الناس بمياه الآبار التي تستخرج بآلات الضخ الحديثة لخطورة النزول في تلك المغارات والحفر، ولا يزال سكان معقلة يحكون القصص الكثيرة عن أولئك الذين تاهوا عند نزولهم في تلك الدحلان.

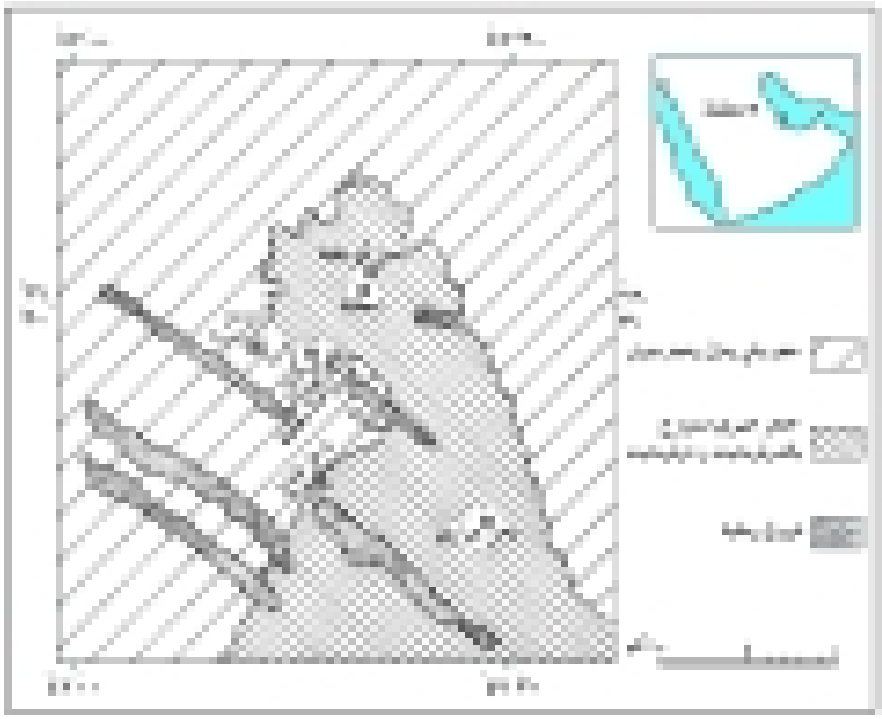

خريطة توزيع الدّحلان في منطقة معقلة

قال النابلسي في الرحلة الكبرى «وكان ممن حضر هناك في المجلس رجل من الثقات المعتمدين اسمه الحاج عبد الرحمن بن أحمد فواز، أخبرنا عن رجل يعرفه أنه أخبره أنه كان سائراً مع رفيق له في البراري التي بين الحساء والقصيم، بالقاف والصاد المهملة، وتلك البراري تسمى بالحِجَرة بكسر الحاء المهملة وفتح الجيم في نواحي أرض العراق والبصرة وهجر بالتحريك، وهذه الأراضي غالبها مفازات، ماؤها قليل، وحرها شديد، ويوجد في هذه الأراضي حُفَر على طريقة الآبار، لها أفواه متعددة، مغطاة بالأحجار تسمى هذه الآبار الدَّحُول بفتح الدَّال وضم الحاء المهملة على ما هو المشهور بينهم، وبين كل فم وفم نحو يوم أو يومين أو أكثر أو أقل، يتفاوت النزول إلى هذه الآبار، بعضها يُنْزَل إليه بثلاثين باعا، وبعضها بأربعين وخمسين وثمانين وتسعين وأكثر وأقل، فأخبرنا أنهما كانا سائرين في هذه الأراضي، فحصل لهما عطش شديد فرأيا رجلاً من عرب تلك الأراضي دَلَّهما على فم من الأفواه المذكورة، فأدليا حبلاً ونزل واحد منهما لأجل الماء، وهذا المكان في غاية الاتساع، فمكث نحو يوم تحت الأرض في هذا البئر فتحقق رفيقه الذي في الخارج أنه تاه عن فم البئر، وكان للرجل الذي نزل ناقة فذبحها، وأخذ مصرانها ووصله بقطع من جلدها، قَدَّه سيوراً إلى أن صار في غاية الطول، ثم تدلى بذلك الحبل الذي تدلى به الأول، وأخذ معه الحبل الطويل الذي قَدَّه من جلد الناقة ومصرانها، ووصله بالحبل الذي تدلى به، ثم ذهب تحت تلك الأراضي، وهو ماسك الحبل بيده لخوف الضياع، عن فم البئر، ومشى كثيراً يُمْنَة ويُسْرَة، وأخبر أن في داخل تلك الأراضي مياه ورمال وأشجار قصار من الطلح والسلم وغير ذلك، ولم يجد رفيقه وأخذ معه من دهن تلك الناقة، وأسرجه لأجل الضوء، ومكث نحو يوم، ثم عجز عن لقياه، فخرج وسار على حاله.

وكان في مجلسنا رجل آخر فأخبرنا بنظير هذه القصة وهو مما يؤيدها، أنه في سنة ألف ومئة وواحد، جاء ركب من البصرة إلى الحج فمروا بهذه الأراضي المذكورة، وكان بهم عطش شديد، فمروا فَمَاً من أفواه هذه الآبار، فنزل رجل منهم، وأدلوه بحبل نحو تسعين ذراعاً، حتى تاه تحت الأرض، ولم يعرف الطريق

إلى فم البئر، ثم إن أصحابه في الخارج رأوا رجلاً من عرب تلك الأراضي، فاستأجروه لينزل ويفتش عن رفيقه بعشرة قروش، فنزل من بكرة النهار إلى العشاء حتى إنه أخرج ذلك الرجل، وأخرج لهم ماء وشربوا منه، ثم ذهبوا» (الجاسر، ١٤٠٠: ٦٧٦-٦٧٧).

وذكر عبدالله بن خميس قصة له مع واحد من هذه الدُّحُول فقال «وقد ألممت ببعض هذه الدُّحُول ودخلت واحداً منها هو دَحْل الهِشَامي مررنا به مع رفقة، ومعنا ماء كافٍ ولكنه قليل العذوبة، فأردنا أن نأخذ ماء عذباً من الدَّحَل ظَانِّيْن أن ماءه قريبٌ، وأن مَأخَذَه يسير، فانحدرت فيه مع ثلاثة من رفقتي هم: منصور أبا الديبان السبيعي، وسعد الحطيم الدَّوْسِري، ومحمد بن حشر القحطاني، وأنا. فأما نحن الثلاثة فقد وردنا الماء واستقينا كل واحد منا تَلَّببَ قربة، ولكنها تعرضت لنواتىء صخرية كأنها السكاكين في جوف الدحل، فمزقتها إلا واحدة، وأما صاحبنا الرابع فقد ضل ولم يخرج إلا بعد لأْيٍ، ولقد أخذت جوانب الدحل ونواتئه الحادة من ظهورنا وجنوبنا ما أخذ النَّجار من خشبته، وعدنا بالخروج وبالدماء فما أصعبه مورداً وما أقساه، وما أغلى شرابه وأندره. وقد قلت يومئذ:

وردتُك أستقِي فكَلَمْت جسمي
فما أقسَاك يادحل الهِشَامي
تُقاضِي الواردِين دمَاً بماء
رمَاك بثاقِب الأفلاك رامِي

وقد ورد ذكر دحل أبو مروه في شعر الشاعر الشعبي راشد الخلاوي حيث أخفى فيه بندقيته عندما علاه المشيب، وذكر مكان البندقية بطريقة وصفية لابنه حيث قال:

عن طلحة الجودي تواقيم روحه
عليها شمالي النسور يغيب
وعنها مهب الهيف رجم وفيضه
وحرورى إن كان الدليل نجيب

ولما كبر الابن وروي له شعر أبيه ذهب إلى المكان وأخذ البندقية وقال ليته قال:

وترى دليله مروةٍ فوق جاله
خيمة شريفٍ في مراح غريب

(الجاسر ١٤٠٠، ج٢: ٦٨١-٦٨٢).

أما الدحلة فهي أرض واسعة بطرف الجبل أو تجويف فيه، مثل: دحلة الحروب ودحلة الموارعة في مكة. وقد يطلقون اسم الدحلة على الأرض عامة، فتسمع من يقول لخصمه: كل من الدحلة: أي من الأرض، وقد تطلق على الشعب المنبسطة دون الوادي. وقال عبدالله بن شيحان عن الدحل:

يا وجودي وجد من في الدحل خلّي
تـاه مع مـتـياهـه وانـقـطع سـربـه
لا سـمـع حـس المـنادي ولا دلـي
يا وجـودي مثـل وجده عـلى دربـه

الآبار. نظراً لتذبذب كميات الأمطار الساقطة وعدم انتظامها في شبه الجزيرة العربـية، وانعدام أنـهار دائمة الجـريان وجفاف الغدران في الصيف، كان لابد من حفر الآبـار للوصول إلى الطبقـات التي تتجمع عندها مياه السيول المتسربة إلى باطن التربة. فإذا حفر أحدهم قليبا ووصل إلى الماء قيل أنبط، وتقول العامة اموه فإن كان المـاء عذبا قيل قَرَاح وإلا فهو هَمَاج. قال الشاعر:

ياعـود موزٍ ربا فـي وسط مقـصوره
شـربه قـراحٍ علـى مطـوية الجـالي

والقليـب حفرة تحفر في الأرض تكون فـي الغالب مـستديرة، ويمـتدُّ عمقها إلـى أن يظهر الماء. يستخـرج منها الماء بالغروب التي ترفعها حيوانات السواني أو بالدلاء، وتـستخدم غالباً للزراعة. وعادة تطوى جوانبها بالحجارة وقد تطـوى بالخشب. ويقـوم بطيها بطريقة فنية شخص متخصص يطـلق علـيه ستـاد، ويكون معـه عدد من العاملين يـساعدونه في عملية إعـداد الحجارة وإنزالها، بينما يقوم هو بعملية البناء والرصف.

القليب: الطي بالحجارة لمنع تهدم القليب

الجّبُ

وإن لم تطو البئر سميت الجب. ولا يطلق عليها الركية إلا إن كان فيها ماء، وقد تكون أكثر ماء من البئر وربما جاء اسمها من ارتكائها لحاجة الناس من الماء. وفيها المثل المشهور «جال الركيه ولا جال ابن غنام» وقصته أنه كان لابن غنام عبد مملوك، وكان قد وعده بالعتق، إلا أنه لحاجته إليه في أعمال المزرعة أخذ يماطل في وعده، فإذا زرعوا زرع الصيف قال له: عند زرع الشتاء، وإذا جاء الشتاء قال له: في الصيف. ولما ضاق الرقيق ذرعاً ويئس من الوعود والأماني الكاذبة رمى نفسه في البئر قائلاً «جال الركية ولا جال ابن غنام» فذهبت مثلاً. ولهذه القصة ما يماثلها في السراة عندما سأل عبد سيّده قائلاً: ما بعد الصيف؟ قال الخريف. سأل وما بعد الخريف؟. قال: الصيف وعند ذلك رمى نفسه في البئر وهو يقول «هذي طريقي وطريق من ساعد الله» وكأنه لا يطيق تتابع فصول السنة المليئة بالتعب. وقد يأكل الماء جانب الحوض أو البئر ويصير كالكهف ويسمى اللجف والجمع ألجاف. وقد ورد ذكر الركية في أبيات من شعر الحكمة في قصيدة الشاعر المعروف ابن شريم وهو يوصي ابنه فقال:

الركية

اليا جفـوك أهـل الوطـن واستَخَفُّوك
شَلِّـع غريـسك ثـم هدِّم ركايـــاك
والا انت لو تمشي على الرجل صعلوك
أطيب مـن اللي تلـتجي له ويـاطاك
وتسمى القليب أو البئر إذا تهدمت جوانبها وكانت عظيمة السعة هباة.

والرَّسُّ هي البئر الكبيرة أو القديمة المطوية بالحجارة، والرِس: نضاح ماء يأتي في سفح الجبل أو داخل الهضاب يتجمع في مكان منخـفض كلما نزح ماؤه عاد، وهو مورد قليل الماء يسقي قليلاً من الناس ولكنه لا يكفي لإرواء الماشية يستخرج منه الماء بالدلاء. ومن الرسوس رس أبو حيـشة ورس نملان يقع غرباً من جبل عقب ورس حطابه بالقرب من المجمعة ورس نملان أيضاً قرب رغبا.

أما العد فهي كل بئـر غزيرة المياه يستـخرج منها الماء بـالدلاء، وقيل: العد موضع يتخذه الناس يجتمع فيـه ماء كثير. وروي عن الأصمعي قوله: العد الماء الدائم الذي لا انقطاع له مثل ماء العين وماء البئر وهـو ماء الأرض الغـزير. والعـد ما نبـع من الأرض ويقابله الكرع وهو ما نزل من السماء، ويقـال: أمن الـعد هـذا أم من مـاء السماء؟ وماء كل ركية عد. قال المهادي من قحطان:

والاجواد مثل العد من ورده ارتوى
والانذال لا تسقي ولا ينسقى بها
عليك بعين العد لى جيت وارد
وخل الخباري فان ماها هبابها

ولسليمان بن شريم:

مقياظها عدٌّ تراجس بياره
فيضة ربيع ومشربه شط وانهار

ومن أمثلة العدود: مُرَّان: ماءٌ قديم، عدّ وفير الماء وهو من أطيب موارد البادية وأشهرها، وقد أكثروا من ذكره في أشعارهم وهو واقع في الناحية الجنوبية لحرة كشب. قال بخيت بن ماعز العطاوي الروقي العتيبي:

ميرادنا عدٍّ به الجمّ فيّاحْ
مرَّانْ عِدَّ مَشْرَهبات العْشَارا

وقال محمد بن بليهد:

ذَبَّنْ غروب الشمس مع خشم الاصفَرْ
اصفر عَفِيفْ وجنبن الخضاره
ويرْدِنْ عدّ ياردهْ كلِّ من مر
مرَّان جعل المزن يسقي حراره

وقال فهيد بن سكران:

ذا قول من هو للشَّعاعير ما قر
عِدّ الى صَكَّوا بهْ الورد طاشِ
عِدٍّ مصاديره على الحيد الاسمر
مَرّان بَهَّاجَ الكبُود العطَاشِ

(ابن جنيدل ١٣٩٩، ج٣: ١١٦٤-١١٧٠).

ودلقان عدٌّ مُرٌّ قديم يقع شرق القويعية في مجذم النفود في حد رمل نفود السر من ناحية الشرق. فيه يقول الشاعر:

عسى الحيا يزِّي الاوطان
يزِّي الرفايع وحمروره
واليا تحدر وطا دلقان
يمطر على جو وقصوره

(ابن جنيدل ١٣٩٨، ج١: ٥٢٤-٥٢٨).

وميقوع عِدّ قديم من موارد البادية الشهيرة، آباره كثيرة وماؤه حلو في خبب رملية بين صرائم تنبت الغضا والضمران. وتدعى هذه الصرائم قصائم ميقوع، وتبرز بينها كثبان رملية متسنمة. يقع في طرف وادي السرحان الشرقي غرب دومة الجندل على بعد مائة كيل غرب نفود الغوطة، وفيه يقول الشاعر الشعبي منزل العرمان الشراري:

عسى الحيا يسقي مواريد ميقوع
ويسقي القليب وماقفه مع مردّه
حيثه يجمع لي مخاليق ونجوع
وكل يقلط له محاله وعدّه

وقال آخر:

إن مت حطوني على جال ميقوع
صوب القليب اللي عشيري وطاها

ويمر بميقوع طريق السيارات الذاهب من الجوف إلى تيماء ثم إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة ويلتقي بطريق المدينة المسفلت عند مركز يقال له القليبة (ابن جنيدل ١٤٠١ : ١٧٥).

والرويقي عد شمال حصاة آل حويل والرويلية ماء عد في ناحية كشب الشمالية الشرقية والريانية ماءٌ عد يقع في شمال الفرشة من بلاد الدواسر وغيرها كثير.

أما الجُب فهو البئر أو القليب التي لم تطو، وقيل لا تكون جبا حتى تكون مما وجد لا مما حفره الناس. والجابية هي الحوض التي ينزح فيها الماء.

وقد ورد ذكر الجب في الآيتين (١٠، ١٥) من سورة (يوسف) قال تعالى ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلينَ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب... ﴾.

أما الجفر والحفر فتطلق على تلك الحفر الواسعة غير المطوية ولا يجذب منها الماء بالدلاء وإنما يحمل باليد.

وتتأثر مياه هذه الآبار عموماً بالأمطار مباشرة، لذلك لا يلبث أن ينخفض فيها مستوى الماء إذا تأخر المطر عن موسمه السنوي، كما قد ينخفض ماؤها بسبب ازدياد النشاط الزراعي في المنطقة وزيادة أعداد القلبان في الطبقة الأرضية. وتُعَمَّق الآبار كلما انخفض مستوى الماء فيها إلى أن يصل الحفر إلى الطبقة الصخرية الصماء، فيقولون أصْفَت. والبئر البعيدة الماء يقال لها عيلم. قال الشاعر مخلد القثامي:

تقفي وتقبل به طوال المجاذيب
في عيلمٍ طوله ثمانين بحساب

وقال الشاعر:

يا ونتي ونة معاويد ابو ضرس
عقب الشحم حبل المجرة طواها
ما كنها الا يوم هي تسقي الغرس
من عيلمٍ ما يلحق الشوف ماها

وقال آخر:

يا تل قلبي من علو المعاليق
تل المعيد اللي طويلٍ رشاها
لى تلته من بين عوج الزرانيق
من عيلمٍ ما يلحق الشوف ماها

وقال حميدان الشويعر:

محا الله من يزرع على غير عيلم
ومن كان يبني بالهيار جدار

وله أيضاً:

الا يانخلاتٍ لي على جال عيلم
حدايق غلبٍ شوفهن يروع

وكان الماء يستخرج قديماً من هذه الآبار، لأغراض الري الزراعي، عن طريق

السواني التي تجرها الحيوانات من الجمال أو الحمير أو الأبقار. قال زهير بن أبي سلمى يصف حيوانات السواني:

وخلفها سائق يحدو إذا خشيت
منه اللحاق تمد الصلب والعنقا

وقال سويلم السهلي:

واوجْد من صَدَّر على اربع محاحيل
لها ليا غاب الرقيب معلومي

وقال الشاعر عبد العزيز السكران:

الصاحب اللي جَرَّح القلب تجريح
زودٍ على تجريحه اقفى يتله
تل الدلي من فوق ملحٍ مدابيح
على قليبٍ وردها ما تمله

وقال زيد الخشيم:

سمّيت واركبت المحاله على البير
ما فوقي إلا نايفاتٍ هياف

وله أيضاً:

للغرس ندني من ضرايب جماله
حيلٍ شتا غاوى الشحم في ظهوره
تجذب دليٍّ مبهمات حباله
من فوق مطويٍّ تساعل بكوره

أما إن سحب المرء الدلو المملوء بالماء إلى أعلى بجهده فقد زعبه وفعله الزعب.

والحسي أو الكر: بئر تحفر في التربة الرملية، وهي قريبة القعر قد لا يتجاوز عمقها خمسة أمتار. وغالباً ما تكون حفرها دائرية، وكلما نزحت منها دلواً

لحسي

جمت أخرى. وهم يقولون إنه ماء المطر يغوص في الرمل قليلاً ثم يصير إلى الصلابة فيقف فيحفر عنه فيشرب. قال ابن منظور: الحسي الرمل المتراكم أسفله جبل صلد فإذا أمطر الرمل نشف ماء المطر، فإذا انتهى إلى الجبل الذي أسفله أمسك الماء، ومنع الرمل حر الشمس أن ينشف الماء، فإذا اشتد الحر نبث وجه الرمل عن ذلك الماء فنبع بارداً عذباً. وفي اللهجة الدارجة تبدل الياء واواً فيقولون الحسو ويجمع على الحساوه. قال الأزهري: وقد رأيت بالبادية أحساء كثيرة على هذه الصفة، منها أحساء بني سعد بحذاء هجر وقراها. قال: ومنها أحساء خرشاف وأحساء القطيف. ومن الأحساء حسو وادي دقلة، والحسيّ في الشمال الشرقي من الصرار. وفي منطقة القصيم يطلقون كلمة حِسِو على بئر أصغر من القليب تكون في المساجد والمنازل يستخرج منها الماء للوضوء والاستخدام اليومي لأهل البيت. وفي الجنوب يطلق الكر على نوعين أحدهما هو الأقل ماءً من البئر والآخر حفرة يأتي إليها الماء من بئر بواسطة السواني ثم يستخرج منه -في نفس الوقت- بواسطتها حتى يوصل الماء إلى المزارع التي تعلو البئر الأساسية.

والثمد: الماء القليل، والثماد هي الحفر يكون فيها ماء المطر، وهي تجف في الصيف. قال ابن منظور: الثماد الحفر يكون فيها الماء القليل. والثمد أن يعمد إلى موضع يلزم ماء السماء يجعله صنعاً، وهو المكان يجتمع فيه الماء وله مسايل من الماء ويحفر في نواحيه ركايا فيملؤها من ذلك الماء، فيشرب الناس الماء الظاهر حتى يجف. فهي إذن حُفَر من عمل الإنسان في مناطق تربتها صماء غير منفذة للماء، يعدل إليها ماء السيل. ومثله السحل والوشل والثميلة. قال ابن سيده: الثملة نحو السملة والنزفة، الماء القليل. والثملة ما يبقى في الحوض من الماء الصافي لا ترى قاع الحوض من ورائه. وقيل هي البقية من الماء في الصخرة وفي الوادي، والجمع ثَمِيل: والثَّمِيل: جمع ثميلة وهي بقية الماء في القَلْتِ أي النُّقْرَة التي تمسك الماء في الجبل. وقيل إن الثَّمِيْلَة مثل المشاش، وتجمع على ثَمَايِل، وتصغيره ثُمَيِّلة، إلا أنها لا تستمر طويلاً، ولا تكون إلا في بطحاء الأودية. والثميلة حفرة يحفرها الناس مثل القليب، إلا أنها أقل عمقاً حيث لا تتجاوز ٣ أمتار. إلا أنها في مجرى الوادي في الغالب أو أي مكان يجتمع فيه السيل مثل الروضة والقلتة ونحوها وليس لها عدة لاستخراج

الماء بل يستخرج الماء منها بالأواني أو باليد. قال الشاعر:

من الثميله ديار الشوق يمسنه
وان روحن بالوصايف جول غزلان

ومما ينسب لجلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله:

واهني الترف منسوع الجديله
ما غطاه الليل دون مغرّزاتي
رَوَّحَنْ مثل القطا صوب الثميله
ضمَّرٍ تضفي عليهن العباة
ورّدوهن هيت واخطاه الدّليله
والموارد غير هيت مقضباتي

والعقلة: أصغر من الثميلة، وهي ماء ضحل في منخفض من الأرض قريب من وجهها ليس بعيد الغور. والعقل في اصطلاح أهل العصر البئر القريبة الماء، ولعلها سميت بهذا لكونها يتناول ماؤها بعقال الإبل لقربه فلا يحتاج إلى رشاء طويل، ويكثر هذا النوع في الرمال ومنها عقل الزلفي وعقل في شرق المملكة منها عقلة فرهود وعقلة المناصير وعقلة الرمث.

والْمُشَاشُ: حفرة في واد يتجمع فيها الماء، قال ابن منظور: المشاشة أرض رخوة لا تبلغ أن تكون حجراً. يجتمع فيها ماء السماء وفوقها رمل يحجز الشمس عن الماء. وتمنع المشاشة الماء أن يتسرب في الأرض، فكلما استقيت منها

الثميلة

دلواً جمَّت أخرى ولعلها سبب تسمية بلدة المشاش إحدى بلدان الوشم. والمشاشة جوف الأرض وإنما الأرض مَسَك (طبقات) فمسكة كذَّانة (حجارة غير متماسكة) ومسكة حجارة غليظة، ومسكة لينة وإنما الأرض طرائق فكل طريقة مسكة، والمشاشة هي الطريقة التي هي حجارة خَوَّارة وتراب وهو في لغة أهل العصر من أبناء البادية الحْسُي القليل الماء الذي يتمَشّشُ ماؤه؛ أي يؤخذ قليلاً كل ما جم ويجمع على أمِشَّةٍ. وتوجد في مناطق المملكة أعداد كبيرة من المشاش منها مشاش القصب، ومشاش المراطيب ومشاش الشكرة ومشاش رغوان ومشاش العضيان ومشاش أبو العكرش ومشاش النقيرة ومشاش جرود ومشاش العود ومشاش المنخلي وغيرها.

وهناك بعض التسميات المحلية للآبار بحسب اختلاف حجمها وغور مائها، ومن ذلك البِدْع والبديع والمبيدع ويطلق على البئر المحفورة حديثاً، أما إذا كانت قديمة ثم أعيد حفرها فتسمى بعيثة ورجيع. وقد أطلقت مسميات الآبار هذه على عدد من القرى في المملكة، فهناك قليب المروب، وقليب الشلقان، وقليب صقر، ومن البدائع بدائع القصيم، وبدائع نقبين، وبدائع السبعان، ومن البدع قرية البدع في وادي السرحان، وقرية البدع التابعة لإمارة ضبا شرق خليج العقبة، وبدع ابن حويط. ومن المبيدع مبيدع الغريسي، ومبيدع حسين وهما قرب حائل والبديع في الأفلاج.

أما الآبار فقد اشتهر منها بئر هداج التي تقع وسط مدينة تيماء القديمة وتحيط بها النخيل، وهي من أشهر الآبار في شبه الجزيرة العربية، ويطلق عليها شيخ الجوية أي شيخ الآبار، وكان يطلق على الرجل الكريم الجواد هداج تيماء. وهذه البئر كانت مورداً لكثير من قوافل الجمال وقطعان الماشية، وكانت الواحات الزراعية المجاورة تروى من مياه هذه البئر. ونظراً لاتساعها فإنه يمكن -كما يقول فلبي- أن يسنى عليها بتسعة وتسعين جملاً دفعة واحدة أثناء فصل الصيف القائظ، وتنقل المياه من البئر بواسطة قنوات يبلغ عددها إحدى وثلاثين قناة معمولة من الحجارة (التيمائي ١٤١١: ٥٤).

وفي الجنوب بئر القَلْت، وهي بئر عميقة، ومع ذلك ماؤها على وجه الأرض على الدوام. ويقول العارفون إن هذه البئر طبيعية إذ لم يقم أحدٌ بحفرها، وربما كانت بفعل نجم أو بركان. وتقع أسفل وادي خيرة في مبدأ وادي جُدَر، وموقعها بالنسبة لبلدة خيرة غربي قرية البريقع إحدى قرى

البلدة، وهي مورد ماء للماشية (الزهراني ١٤٠١: ٥٢).

ومن الآبار ما يسمى بالطوال قد يصل طولها إلى تسعين متراً، وهي ليست كثيرة الأعداد. فمنها طوال النتيفات والطويلة جنوب وادي الدواسر وطوال آل مرة. ومن أشهرهن وأقدمهن القرعاء واللصافة واللهابة ويسمين الشاجنة وسمين بالطوال لبعد قعرهن كما يسمين حالياً طوال مطير.

وتقع القرعاء جنوب اللهابة في مفيض واد يدعى وادي السدير. يقول أبو المقدم الضبي:

بئر عميقة قرب الحيانية وسط النفود

بكى فَلَكُ القرعاء من لدم ربها
وما قابلتها من ثنايا الموارد

واللّصَافَةُ، وكانت تعرف قديماً باسم لصاف، وهي من أطيب المناهل وأشهرها لتوسط موقعها في المراتع المفضلة عند أبناء البادية في الصمان وشرق الدهناء.

قال جرير:

وأَجَرّ مُطَّرِد الْكُعُوبِ كَأَنَّهُ
مَسَدٌ يُنَازِعُ من لصاف جَرُوْرَا

الإجرار: أن تطعن الرجل ثم تخلي الرمح فيه، والجرور: البئر البعيدة القعر التي تُسْنَى بالبعير، وسميت الجرور لأن دلوها يجر على شفيرها لبعد قعرها وتقع اللصافة في أعالي الشَّيِّطين، في مفيض شعيب فيصل، شمال القرعاء.

واللّهابة وتقع في أسفل الصمان في أعلى واد صغير يدعى دُمَيِّغ وكان يمر بها طريق من أشهر الطرق التي تخترق الصمان إلى شرق الجزيرة يدعى المبيحيص، وكانت اللهابة وما حولها ذات شأن عظيم في حياة البادية لكونها في أمكنة تألفها لطيب مراعيها فهي قريبة من الدهناء وأرقعه في الصلب وشرق الصمان ومن شعر راكان بن حثلين:

فَلاَح دوك النّو نقّضْ ربابهْ
يازيْن برقهْ شارْقٍ في رفاياهْ

جِعْلهْ عـلى الصّلْبَ الْحَـمر واللّهابَه
وعـلى جـوَيَّات الْـهـمَلْ نَـاْثـرٍ ماه
(الجـاســر ١٤٠٦، ج٤: ١٤٠٣، ١٥٣٢ ، ١٥٥١).

ومنهن آبار رُمَاح وأشهرهن خمس هي: الجبـرية، والزيدي، والـسيّاريّة، وبطيحان، وكُتلان. ومن أشهرهن ماء الزيدي فهم يقولون «من أشبعته الدهناء ارواه الزيدي» وكذلك بئر الجبرية يضرب بها المثل فيقال «كانك على جال الجبريه» ويبلغ عمـق هذه الآبار خمسة وثلاثين باعـاً ولعمـق هذه الآبار. يـقول أحد الشعراء الشعبيين:

يا تل قلبي تل دلو رماح وسط القليب
صار العوض منها العراقي والدلو ما كفاه
(ابن خميس ١٤٠٠، ج١: ٤٧٦-٤٧٧).

وماء هذا النوع من الآبار أغزر من الآبار الأخرى، ويسد حاجة الـبدو من الماء في فصل القيظ. ولعبدالله بن سبيل قصيدة جاء فيها:

يـا تلّ قـلـبـي تلـتـين من اقـصـاه
تـلّ الـــوراد الـلّـي حـــيـام وروده
يم الـطّـوال الـلـي عدوده مـطـوّاه
يـروع جـذّابـــه مـجـاذب عـدوده
عـلى قـعـودٍ مـا يسـانـع بمـشـاه
مسـتصـعبٍ مـا يتـبع الـلّي يـقوده

إنه لمن الصعـب جداً على من نشأ وعاش في هـذه الفترة، التـي أصبحنا نشـرب فيها مـن مياه البـحر المحلاة، ونسقي زروعنا بالـري المحوري من آبار ارتوازية عـميقة بقيـت فيها المياه آلاف السنين بين طبقات القشرة الأرضية، أن يتصور حجـم المعاناة التي كان يعيشـها الآباء والأجداد في كدهم للحصول على الماء لهم ولمزارعهم ولأنعامهم. فقد كانوا يحفرون الآبار في الطبقة السطحية القريبة بحثاً عن الماء. ومياه هذه الطبقات عادة ضحلـة قليلة تـتأثر مباشـرة بالتسـاقط المطري، فـلا تلبث أن تجـف في سني القحـط وانقطاع المـطر. وكانوا يـبنون السـدود من التراب والحـجارة وتعرف عنـدهم بالـعقوم فـي مجاري الأوديـة والشعاب التي يتقاسم الجيران مياهها كلٌّ له شِرْب معلوم. وفي الوقت نفسه كانوا يتتبعون محاجر المياه الطبيعية على السطح مـن عـيـون، ونواقـيـط، وغـدران، وخرابيب، وقلات ويـردونها بأنعامهم ويروون منـها لحوائجهـم. وقد أدركوا اختـلاف مناسيـب الماء البـاطني تحت السطح، وأن مستواه في بعـض المناطق قد يكون أعلى من مستوى سطح الأرض في مناطق أخـرى قريبة. وقامت على ذلك مشروعات ري تعتبر متقدمة بالنسبة

للـوقت الذي قامـت فيه والإمـكانات المتاحة. فـهناك مشروع عين زبـيدة في مكة المكرمة، ومثله، بشكل مصغر، قناة فرزان وخرزاتها في الخرج وكـلها تقوم على استغلال قرب مستوى الماء الباطني من السطح في مناطق مرتفعة نسبياً، ونقله عبر قنوات إلى المناطق الزراعية أو السكنية القـريبة. ومثـل ذلك يقال عـن عيون الأفلاج وخرزاتها والتي كان يخرج منها عشـر سواقي تسـقي السيـح الشمالـي والسيح الجنوبي والسويداء.

ومثلما يستدلون علـى مواقع موارد الميـاه في الفـلاة بالنـجوم والعـلامات والطيور، فإن لهم في الأماكـن المناسبة لحفر الآبار والخليقة بكثرة الماء وقربه من السطح فراسة ودلائل، منها نوع النبات النامي ومنها نوع التربة، وطبيعة المنطقة المحيطة، وأين تنصرف مياهها. وهناك من يستخدم سيخين من نحاس يرفعهما في يديه ويسير فإذا مر على مجاري الماء الباطنـي تخالف رأسا هذيـن السيخين والتفـا حول عنقـه. ويظل يتـتبع هذه المجاري واحداً واحداً إلى أن تتجمع في مكان يكون هو الأنسب للحفر. ومنهم من ينظر إلى انعكاس أشعة الشمس عند الغروب فإن رأى تشتت هذه الأشعة في منطقة دون المناطق الأخرى علم أن الماء الباطني فيها أقرب إلى السطح لأن تشتت الأشعة ناتج عن ارتفاع كميات من بخار الماء من سطح التربـة. ولا يرتفع بخار الماء من التربة إلا إذا كانت طبقاتها القريبة من السـطح رطبة مما يدل عـلى ارتفاع مسـتوى الماء البـاطني فيـها وقربه مـن السطـح. وفي الجنوب مـختصون فـي الكشف عن المياه في باطن الأرض يدعى الواحد منهم مهندساً أو مبصراً لكن هذه المهنة لا تستند إلى حقائق علمية.

المياه السطحية

وهي المـياه التي تـكون على وجـه الأرض وتتـخلف عـلى إثر الأمطـار، كالسيول والغدران والقلات.

السيول. السيل هو الماء الكثير المتجمع من المطر الجاري في الأودية، فحين تهطل مياه الأمطار علـى سطح الأرض، منها ما يتبخر مرة ثانية، ومنها ما تستقبله أوراق النـبات، ومنـها ما يـصل إلى الأرض ويتجمع في مسـتنقعات أو يجري على السطح أو يتسرب خلال طبقات التربة. والتربة التي تكسو سطح الأرض، سواء أكانت مكونة من مفتتات طينية، أم طميية ناعمة، أم رمال، أم حصى وحصباء، أم خليط من هذه المواد جميعاً، فإنها تتشرب الماء بمعدلات محدودة، تتغير بتغير نوع

التربة بل إنها تتغير في نوع التربة حسب درجة رطوبتها. ويرتبط ذلك بمدى اتساع المسام الموجودة بين الحبيبات المكونة للتربة (مسامية التـربة). فالتربة الرملية مثلاً، لها معدلات تشرب عالية لأن مساميتها عالية ونفاذيـتها عالية، لذا يتسرب الماء خلالها بسرعة كبيرة. بينما التربة الطينية الناعمة نفـاذيتها للماء منخفـضة لضيق المسام الموجودة بـين حبيباتها، لذا فهـي ممسكة للماء. وأكـثر منها إمساكاً للماء الأسطح الصخرية الصلبة.

وإذا ابتلت التـربة بالماء فسرى فيها الندى قـيل: أرض ثرية. قـال الشاعر محمد السديري:

عـز والـيـك يـابـرق سـرى
خـلـت بـرقـه وانـا مـا ذقـت ماه
يـنـبـت الـورد عـقـبـه بـالـثـرى
وان نـزل وبـل ديمـه مـن سـمـاه

فإن اشتد الندى في التربة حتى يلزم بعضها بعـضا، فهو الثرى الجعد، فإذا زاد فهو كباب، وإن زاد عـن ذلك فهو الثرى العمد، وإذا كان عمق الثرى في الأرض مقـدار راحة اليد فـهو المرحي ويسمى مسـكه. وإن كان إلى مستحل الذراع فوق مفصل الكتف فهو الرسغ، المنبـت النافع بـإذن الله. وإذا كان إلى المرفق فهو الجود ويسمى كوع وهو يجزي الأرض شهراً. قال الأصمعي: إذا التقى الثريان فهـو الجود، يعني ندى السطـح وندى الباطن والعامة تقول: لحق الثري الثرى. فإذا بلغ نصف العضد إلى المنكب فهو الحيا ويسمى معجر. فإن ذهبت يد الحافر كلها حتى يمس الأرض بإذنه فهو الجدا.

ويتأثر تشرب التربة للماء أو تسربه خلالـها بعدد مـن العوامل الأخـرى، بالإضافة إلى درجة مساميتها، من أهمها كمـية الرطـوبة الموجودة فـي فراغات التربة. فـإذا كانت التربة جافـة، فإنها تتشرب الماء بكميات أكبر نسبياً. وكلما امتلأت الفراغات قـرب السطح بالماء، انخفض معدل التشرب، حيث تتسرب قطرات الماء ببطء من سـطح التربة إلى الأسفل عبر ممرات ضيقة من الفراغ البيني لحبيبات التربة مما يعيق وصول الماء بسرعة إلى الطبقات السفلية. كما يتأثر مـعدل التشرب بوجود الغطاء النباتي حيث تعمل جذور النبات على تشقيق التربة، وتسهيل تسرب الماء خلالها إلى الطبقات التحتية. وكـذلك نجـد أن انتـشـار الحشـائش والأعشاب الصغيـرة على سطح التربة يقلل من سرعة تدفق المياه، مما يتيح لها وقتاً أكبر للتسرب خلال التربة. وبالمقابل فإن سرعة المياه تزداد فوق الأسطح العارية

شديدة الانحدار، مما يقلل من فرص تسرب الماء خلال تربتها لسرعة جريانه فوقها وعدم توافر الوقت اللازم لتسربه خلالها.

وإذا كان معدل التساقط (كثافة المطر) أقل من معدل تسرب الماء خلال التربة فإن الماء المتساقط جميعه تتشربه التربة. ولا يحدث جريان سطحي (سيول) إلا إذا استمر المطر لفترة طويلة وانخفض معدل التشرب إلى معدلات أقل من معدل سقوط المطر، حيث تتشرب التربة جزءاً فقط من ماء المطر الساقط عليها بينما يبقى الفائض على السطح متجمعاً في البداية في التعرجات والمنخفضات الصغيرة. ومتى امتلأت هذه المنخفضات بالماء، بدأ بالجريان تحت تأثير الجاذبية الأرضية تبعاً لاتجاه انحدار سطح الأرض نحو الشعاب والأودية. أما إذا كانت كثافة التساقط المطري أعلى من معدل التشرب من البداية، فإن الفائض يبدأ بالجريان بعد امتلاء تعرجات ومنخفضات سطح التربة فور بداية المطر. كما يحدث في الزخات المطرية الصيفية القوية قصيرة الأمد.

يصل الماء إلى مجاري الشعاب والأودية من الأمطار التي تسقط عليها مباشرة، أو من المياه التي تجري على سطح التربة منحدرة إليها، أو من المياه التي تتسرب خلال التربة وتظهر في بطن المجرى بعد تشبع الطبقات التحتية من التربة وامتلاء فراغاتها بالماء، مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى الماء القاعدي إلى ما فوق مستوى قاع الوادي.

ويرتبط الماء، الذي يصل إلى المجاري المائية عن طريق الجريان السطحي، بالزخات المطرية ويتوقف بعد سقوط المطر. ولأنه يجري على السطح بتأثير الجاذبية الأرضية فهو سريع الجريان، مقارنة بالماء المتسرب من باطن التربة. لذا فالسيول التي تحدث من الجريان السطحي قد تكون سريعة قوية مدمرة أحياناً، لكنها لا تلبث أن تتوقف بعد توقف المطر. أما إذا استمر التساقط فترة تكفي لتشبع طبقات التربة بالماء وارتفاع مستوى الماء القاعدي إلى ما فوق مستوى قيعان الأودية، فإنه بالإضافة إلى مياه الجريان السطحي ينضح الماء في مجاري الأودية والشعاب من الطبقات السفلية المشبعة بالماء، وهذه الطبقات لها طاقة تخزينية عالية، ويتسرب الماء خلالها ببطء لذا فالسيول التي تجري منها إلى الأودية تكون أقل تذبذباً وقد تدوم أياماً أو أسابيع بعد توقف المطر.

وتعتمد سرعة تدفق الماء خلال الرواسب على مساميتها، وعلى معامل انحدار مستوى الماء القاعدي. ولأن الرواسب تتكوَّن عادة من طبقات غير متجانسة، تختلف نفاذيتها للماء اختلافاً كبيراً. فمنها طبقات ذات نفاذية عالية للماء، ومنها متوسطة النفاذية، ومنها المنفذة للماء. وتعاقب مثل هذه الطبقات مهم جداً في تحديد نوع الظواهر المائية. فإن كانت الطبقة السطحية صماء غير منفذة، أو قليلة النفاذية للماء فإن مياه الأمطار التي تسقط عليها لن تتمكن من التسرب إلى باطن التربة بل ستنصرف على سطحها إلى مجاري الشعاب والأودية المنتشرة على السطح. وبالمقابل فإنه إذا كانت الطبقات التحتية غير منفذة للماء فإن المياه تتسرب من سطح التربة إلى أن تصل إلى الطبقة غير المنفذة للماء فتتجمع على سطحها. ثم تبدأ بالتدفق مع اتجاه انحدار الطبقات. وقد تظهر هذه المياه على السطح مرة أخرى على شكل ينابيع أو عيون أو قد تتجمع في المحاجر المائية عند ثنيات الطبقات فتستخرج من الآبار والارتوازيات.

وقد تجمع من اهتمام العرب الشديد بالمياه والسيول ذخيرة ضخمة من المصطلحات، منها ما يرتبط بمجاري المياه

سيل ضعيف

وأوصافها في الكبر والصغر؛ ومنها ما يرتبط بالمياه وكثرتها واندفاعها في المجاري، ومنها ما يرتبط بما يحمله السيل من مواد مختلفة من زبد ورواسب، بالإضافة إلى التسميات المرتبطة بها.

فعندما يسيل ماء المطر في الوادي ويكون ضعيفاً يجري متعرجاً بين صخور رواسب القاع، فهو سريب ويقال «يسورب» والدافق الرافق الذي لا يجرح الأرض. فإن سال بقوة فهو سيل راعب، ويقال حاشر وزاعب إذا ملأ الوادي. فإن فاض عن مجراه فهو غرق. فإن وصل السيل إلى منطقة لم يسقط بها مطر قيل سال الوادي دُرءاً.

وعامة أهل نجد يبدلون الهمزة واواً فيقولون «جانا السيل دَرُو»، وفي منطقة الحوطة ووادي الدواسر يقال قرو ويقال عوير وعاير، وفي مناطق أخرى يطلقون عليه جذيب. قال ابن منظور: درأ علينا فلان دروءا إذا خرج مفاجأة، وجاء السيل دَرءا ودُرءا إذا اندرأ من مكان لا يعلم به فيه، وقيل جاء الوادي درءا إذا سال بمطر واد آخر. وقيل جاء درءا أي من بلد بعيد. وهذا النوع من السيول من أخطر أنواع السيول على الناس وكان، ولا يزال، يهلك الكثير منهم ومن ممتلكاتهم كل سنة، خاصة إذا جاء ليلاً.

سيل جارف–وادي المشقر

وللسيل من قوة اندفاعه حميل وزبد، وهو ما يطفو عليه من غُثاء وجُفاء من الهالك البالي من ورق الشجر، وما يبس من المرعى، وما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء. فإذا بدأ مستوى الماء ينخفض في الوادي وينحسر عن جوانبه، فإن ما يتركه وينحسر عنه من الغثاء يسمى الحث. أما ما يحمله من طين ورواسب فإنه يقال له طميم. قال الشاعر:

قيلي كما سيلٍ تَحَدَّر طِمِيْمه
في ديرة رب الملا مرجعٍ له

قال ابن منظور: طم الماء يطم طما وطموما: علا وغمر. وجاء السيل فطم ركية آل فلان إذا دفنها وسوّاها. قال الشاعر:

فَصَبَّحَتْ والطير لم تكلم
خابية طُمَّت بسيل مفعم

وإن حفر السيل جوانب الوادي عند منحنياته قيل: جاخ السيل الوادي. والعامة تقول لأثره حينئذ مجخّ سيل إذا لغف جانب مجراه من الأسفل وبقيت الطبقة السطحية بارزة. فإن انهدم من الأعلى إلى الأسفل سمي ثلم.

وفي وصف السيل القوي المدمر قال الشاعر محمد بن ثامره:

بالله على سيلٍ
ورود الفْيحه مَدّوى

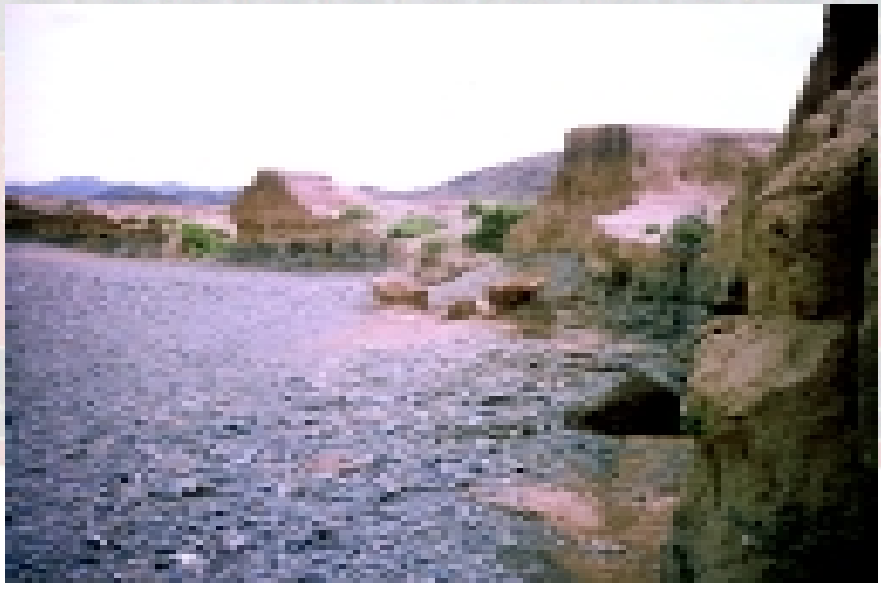

مجخ سيل حيث حفر السيل جانب الوادي

الغيل – الحائر – السيح: يلاحظ صفاء الماء ونقاوته، خلافاً لماء السيل

لا دّقل جوف المحاني ما لقي
من حيث ما ينصا حَبّاً
والعقائم داسها حتى غدت
ع الزراع ادْمَرا
شال من في جُرّته
واللي بعيدٌ يتناوله

وفي الجنوب يطلق على ما يخلفه السيل من رمل ناعم في المزارع التي يمر بها الربح وهو جيد للزراعة وأفضل من التربة الأصلية.

وأحياناً يكون في منخفضات الصخور الجيرية حفر تحفظ الماء، وربما كانت في القيعان والرياض يملؤها ماء السيل ويبقى فيها دهراً لأن أسفلها صلب يمسك الماء، وتسمى حوايا واحدتها حويه، ومنها جاء اسم الحويه البلدة المشهورة قرب مطار الطائف.

وسيل ما بين كل تلعتين هو المذنب أو الذناب، ويقال له أيضاً ذنب التلعة، والمذنب أيضاً كهيئة الجدول يسيل عن الروضة ماؤها إلى غيرها فيتفرق فيها، ويقال له مذنب الروضة.

وفي بعض مناطق المملكة يطلق المربخ على حضن الرمل الذي تغمره مياه السيول، أما مسايل الوديان فهي المناطق التي ينصرف إليها سيلها.

وإن رشح الماء من باطن الأرض على وجهها واستنقع فهو النز أو الحاير.

الغيل – الحائر

والحاير المكـان الذي يحير فيه السـيل ولا يجد له فيه طريقاً. قال الشاعر:

يـامـا حـلا لايـح الـبـرق
والـسـيـل لا حـار حـيـاره

فإن سـال سمي الغـيل أو الغـلل خاصة إن كان يظهر تارة ويختفي تارة. ويسمى الـنجل، والسيح إن كان المـاء جارياً على وجه الأرض. ويوجد كثير من الغيـول في تهامة بشكـل خاص، وتسمى النضية.

الغدران. جمع غـدير وهو –كما جاء في لسان الـعرب– ما يتبقى من مياه السيل الحديث بعد ذهابه. ويسمى غديراً لأن السيل غادره أو لأنـه يغدر بأهله عـند الحاجة إليه لانقـطاعه في الحر. وهو أخدود تحتفره المسـايل من علٍ فيمضي السيل عنه، ويبقى الماء فيه فتصفقه الـرياح فيصفو ويبرد ويكون في أحد جانبي الوادي. قال الـليث: الغدير مستنقع ماء المطر صغيراً كان أو كبيـراً، غير أنه لا يبقـى إلى القيظ. وقال بعض أهل اللغـة: الغدير فَعِيل من الـغدر، وذاك أن الإنسـان يمر به وفيه ماء، فربما جاء ثانياً فإذا جاء وجده يابساً فيـموت عطشاً، كما ذكر ذلك ياقوت الحموي.

ومن الغدران ما يمكث شـهوراً بعد انقطاع الـسيل وذهاب موسمه فيـصبح

الغدير

مورداً للرحل ومواشيهم من البادية والحاضرة، ومن أمثلتها غدير الشماس المعروف على طريق الحاج من نجد قرب حرة كشب. ويسمى الغدير أحياناً النهي، والأضاة ومنه أضاة بني غفار على بعد عشرة أميال من مكة. وأصغر منه ما يسمى عند العامة النِّقْعة وقد يقال مَنْقَع وحُوْره. قال الشاعر:

قالوا البرق في ذيك المزون الثقيله
وش تبي فيه يفرح فيه راعي الحلالِ
قلت جعله على ديرة طويل الجديله
ياخذ ايام فيها والمناقع سبالي

ويقال للرواسب الطينية اللزجة في قيعان المستنقعات والأودية والسدود غِرْيَن. قال ابن منظور: غرين: ما بقي في أسفل الحوض والغدير من الماء والطين. وقيل: هو الطين الذي يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً وقد يرى رقيقاً متشققاً على وجه الأرض. وهي تنطق عند العامة غَرِيْن بفتح الغين المعجمة وتحريك الراء المهملة. وتطلق في الغالب على ما يترسب في قاع مياه السيول الراكدة من مواد طينية وطمييية لزجة. وقد يقال له غريف وبخاصة إذا كان رطباً.

وإن كان المستنقع في ظل يبرد ماؤه فهو الثَّغَب، خاصة إن كان في الحصى كأن يكون في ظل جبل

غدير في قراقر

ونحوه وفي المثل الشعبي: جنة حمار ثغب وثيل. أما ما يعرف في منطقة القصيم بالجِرْبُوْب فهو تجمع مائي في منخفض طبيعي في مجرى الوادي أو الشعيب، غالباً طيني الرواسب، حوافه من الحصى والحصباء. وقد يطول به الزمن بعد توقف الوادي فتنمو حوله بعض النباتات، وقد تزرع النباتات المثمرة على حوافه أحياناً. قال الشاعر:

المِكَرَّه داثره والحيل وانـي
وانجر الجربوب والجربوب عيَّا

ومن الغدران المعروفة غدير الحصان، وغدران الشوكي، وغدير الوريكي. يقول فيه حويد العضياني الروقي:

وملاَّ خباري الشبرم اللي وطا به
وملاَّ الوريكي والغدير الحرامي

وفي الطائف غدير البنات من أشهر الغدران يوجد حيث ينحدر وادي ليه من قمة جبل السروات من بين جبال شاهقة يتعرج هنالك ويخلف منحنيات وغُدُر من بينها هذا الغدير.

وهناك غدير أبا الحيران يقع في بطن الجرير، ويقال إنه سمي بهذا الاسم لأنه حينما يمتلئ بمياه الأمطار وترده الإبل فإن حيران الإبل حين تنزلق فيه تغرق في مياهه لسعته وعمق مياهه، وهو الذي

الثغب

ذكرته الشاعرة مرسى العطاوية الروقية حين قالت:

ومبهل وابا الحيران متوسطٍ فيه
مرتاع بدوٍ ما تلاهم شواوي

ومن غدران المنطقة الجنوبية غدير الخَرْق، غدير ماء بوادي المزرعة بجبل عيسان وهو عميق جداً ولا ينقطع، ويبعد عن بلدة بني سار بمسافة ساعة للماشي راجلاً، ويقدر طول هذا الغدير بعشرين متراً طولاً في عرض عشرة أمتار، وتكثر فيه الأسماك، وهو مورد ماء لبادية الزهران من غامد. وغدير دبّاج وغدير أبو منام وغدير الخرّاره وغدير جَحْوَشة. (الزهراني ١٤٠١: ٩١).

وفي قيعان المنخفضات الجيرية حفر ضيقة متعمقة يطلق عليها المعي وجمعها الأمعاء. قال الأزهري «وقد رأيت بالصمان في قيعانها مساكات للماء، وإخاذاً متحوية تسمى الأمعاء وتسمى الحوايا، وهي شبه الغدران غير أنها متضايقة لا عرض لها. وربما ذهبت في القاع غلوة».

الخباري. جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي الخَبِرَةُ والخَبْرَاء وجمعها خَبِرٌ وخِبَارٌ وخَبْرَات من المنخفضات الصغيرة التي تنتشر في المناطق الجيرية وغير الجيرية على السواء، وهي تحمل في لفظها معنى الانخفاض أيضاً

والخبراء اسمٌ لكل مستقر ماء من مياه الأمطار سواء كبرت وغزرت وأنبتت السدر والعضاه، وطال مكثُ الماء بها أم ما دون ذلك، وتجمع على خباري وخبراوات وخُبرُ، ويدخل في مفهوم الخباري بعض الرياض، ومستقرات المياه التي تستقبل مياه السيول وتمكث بها مدداً طويلة مثل خبراء الخفيسة، وحيراء العصل والمجمع وغيرها. قال ابن الأعرابي عن الخَبِيرَات: هي خَبْراوات بالصَّلْعَاء، صلعاء مَاوِيَّة، وإنما سمين خَبيرات لأنهن خَبَرْنَ في الأرض بمعنى انخفضن واطمأنَّ فيها. والخَبَار كما يقول ابن منظور ما لان من الأرض واسترخى، وفي الحديث: فدفعنا في خَبَار من الأرض، أي سهلة لينة. والخَبِرة تحمل بعض خصائص القاع وبعض خصائص الروضة، ويمكن الاستدلال على ذلك من قول الحموي نقلا عن الأصمعي «الخَبِرَة والخَبْراء القاع ينبت السِّدر». فالخَبِرة تشبه القاع في إمساكها الماء، إذ يمكث فيها الماء أحيانا إلى وقت القيظ وتردها البادية لسقيا مواشيها وإبلها حتى تجف فيستقون حينها لمواشيهم من الآبار. يقول الشاعر:

خبرا في صفاقة

خبرا يحيط بها السّدر

تملَّتْ خباري الصلب وين انت ياالعطشان
ثمان الخباري تاسعتهن كحيليله

وقال ساكر الخمشي:

أخاف اموت ان ما حصل لي ولا شي
دغلوب خبرا ناشفٍ ميها ناش

ومن أمثال غامد وزهران: يا الله سيل بُوا يسد خبايره، وفي موضع آخر يقال: يا لله سيل برحا يسد أخبارها.

ويكون -كما جاء في لسان العرب- سطح الخَبِرة مُشَقَّقا بعد جفافها، تماماً كالقاع، وهي أيضاً مستديرة مثله. وتختلف الخبرة عن القاع في صغر مساحتها إذ يُحاط بأرجائها بمجرد النظر، وهي غير مستوية كالقاع إذ تبدو سطحاً مقعراً واضح المعالم، يتراوح عمقها عن السطح المحيط بها بين متر ومترين.

وأخذت الخَبِرة من الروضة خاصة الإنبات، وتسمي العرب منابت السِّدر الخَبْراوات (الحربي ١٩٦٨: ٥٨٣)، إذ يكثر فيها السِّدر. قال الليث: وفيها يَنْبَت الخَبْرُ وهو -كما ورد في لسان العرب- شجر السِّدر والأرَاك، وحواليها عُشب كثير. وليس شرطاً أن يكون بالخبرة السِّدر أو الأَرَاك، إذ إن بعض الخبارى خالية من النبات تماماً، مثل خبرة الجرذاوية في القصيم.

خبرا–محير – منقع

وتنتشر الخَبْراوات بشكل خاص في إقليم الصَّمان الكارستي، حيث تنشط إذابة الصخور الجيرية في موسم الأمطار، ثم تحمل الرياح مخلفات تلك العمليات، ويساند عملية الإذابة عامل هام هو العامل الأحيائي، إذ تنتشر بالمئات أجْحَار الضِّباب والجُرذان واليرابيع وبيوت النمل وغيرها من الأحياء التي تأوى إلى مواقع الخَبِرات ومناقع المياه التماسا للرطوبة في فصل الصيف الحار، فإذا ما نزلت الأمطار خَلْخَلت تلك الغيران وهدمتها ومهدت نقل فتاتها بالرياح. ومن هنا جاء قول العرب كما جاء في لسان العرب لابن منظور «الخَبَار أرض لينة فيها جِحَرة» وهي جمع جُحْر، وجِحَرة الجُرذان واحدته خُبَارة. وفي المثل: من تجنب الخبار أمن العثار. وقد تغير مفهوم الخبرة في عصر ياقوت، فأصبح يطلق على الغدير. قال ياقوت «فأما عرب هذا العصر فإن الخَبْراء عندهم الماء المحتقن كالغدير يردون إليه، ولا أصل له عند العرب». غير أن الغدير لا يمكُث مُكْثَ الخَبِرة.

ويمكن اعتبار الخبرة والغدير المرحلة الأولى في تكوين الروضة، أو أنهما

منخفضات جنينية، ويبدو ذلك واضحاً في المناطق الجيرية التي تطَّرد فيها عملية التخفيض بسرعة أكبر نتيجة لتضافر عمليتي الإذابة والتَّذرية.

والمراض: (وتجمع على المرائض أو المراضات) مأخوذة من استراضة الماء واستنقاعه فيها، والأرض سهلة لا تمسك الماء لكن أسفلها صلب يمسك الماء، ومتى احتاج الناس إلى الماء حفروا الأرض واستقوا من تلك المياه إن كانت عذبة. ويسمى ذلك المورد عندئذ الأحساء.

والجدير بالذكر أن روضة مَعْقُلة ذكرها العرب في عداد الخَبرات. قال الأزهري «وبالدَّهناء خَبْراء يقال لها معقلة، قلت: وقد رأيتها وفيها حوايا كثيرة تمسك ماء السماء دهرا طويلا، وإنما سميت معقلة لإمساكها الماء». وفي نص ياقوت عن الأزهري «وفيها خَباري كثيرة تُمْسِك المَاء». ومن عبارة الأزهري نستنتج أن روضة معقلة الحالية كانت مجموعة من المنخفضات الصغيرة أو الخبرات التي التَحَم بعضها ببعض مكونة منخفضاً أوسع.

ولا يمكن إغفال أثر العامل البشري في عملية التخفيض، إذ يوجه الرعاة أغنامهم نحو هذه المناطق فتثير سطح التربة وتقلع الأعشاب من جذورها - وهي المثبت للتربة في المناطق الصحراوية- فتتفكك وتسهل عملية تذريتها. ومن جهة أخرى فإن زراعة الإنسان للروضات تعمل على حفظ مستوى المنخفض، بل يردمه الإنسان أحيانا بالرمال القريبة من أجل تحسين مستوى التربة.

والهجلة، خبراء واسعة بطنها عميق تدفع فيها أودية ويلبث ماء السيول فيها مدة طويلة، مثل الهجلة الواقعة شرق جبل ذقان وإياها عَنى الشاعر الشعبي إبراهيم بن جعيثن بقوله:

وانزل من الهجله إلى النير وبحار
ووادي سدير وكل حلاوي ثماره

وفي القاموس: الهجل: المطمئن من الأرض.

والنقعة: مستنقع مائي راكد.

والخفق: خبراء عظيمة يكون بطنها عميقاً تجتمع فيها السيول مثل خفق الشلوي الواقع غرب النير، وجمعه خفقان. قال شاعر من عتيبة:

ياذيب ابا الفوس والخفقان والنير
عان العشا في جراديح الصمود

ويبدو أنهم اشتقوه من الخفوق بمعنى أنه يغيب من يقع فيه لعمقه وسعته. (ابن جنيدل ١٣٩٨، ج١: ٢٦). ومنها خفق سرابه في هريسان جنوب الخرج في بلاد الدواسر يدفع بها وادي العجرمي.

أما المقر فمنخفض صغير ليس له شفة بارزة ولا يكون عميقاً، ويكون في صحراء غير منحدرة يستقر فيها ماء المطر، وهو أصغر من الخبراء وأقل عمقاً. وفي القاموس: القرار والقرارة ما قرّ فيه، والمطمئن من الأرض، وفي شعر عنترة:

جادت عليه كل بكر حرة
فتركن كل قرارةٍ كالدرهم

والحاجر: موضع يكون له شفة تحجز ماء المطر، ويكون في الصحراء ذات الانحدار اليسير وتكون شفته غالباً على شكل هلالي، ويكون الحاجر خلف الآخر، فإذا زاد فيه الماء فاض منه إلى الذي يليه. وبطن الحاجر غير عميق. وفي القاموس: الحاجر الأرض المرتفعة ووسطها منخفض وما يمسك الماء من شفة الوادي كالحاجور ومنبت الرمث.

والمحفل: مجتمع الماء حيث ينتهي سيل الوادي ويقال: حفل الوادي بالسيل واحتفل جاء يملء جنبيه.

والمحير: هو منتهى تجمع سيل الوادي الكبير.

القِلات. ومفردها قَلْت، ورد ذكرها في المخصص بأنها منخفضات تحدث عادة في الأسطح المكشوفة نسبياً، المستوية أو اللطيفة الانحدار في صخور الجرانيت والحجر الرملي وأنماط صخرية أخرى. ويختلف شكل هذه الحفر باختلاف المسطحات التي توجد فوقها. وهي في الغالب مستديرة أو بيضاوية فوق المسطحات المستوية، وغير متناظرة فوق المسطحات المائلة. وقد يصل قطر الحفرة إلى حوالي خمسة عشر متراً، أما العمق فيصل أحياناً إلى أربعة أمتار، وهي في العادة ذات قيعان مستوية أو مُقَعرة بحواف رأسية أو ناتئة. وقد أطلقت العرب على هذه الظاهرة عدة تسميات منها الرِّدَاه، واحدها رَدْهَة، والخَلائق، واحدها خَلِيقَة، والوِجَاذ، واحدها وَجْذ وغير ذلك. والردهة تدل على الحفر الشبيهة بالقلات. قال الأصمعي: الردهة النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء. وذكر ابن سيده أن الردهة حفيرة في القف تحفر أو تكون خلقة فيه. فهي هنا بخلاف القلات والخلائق التي تكون ظاهرة طبيعية محضة. وإذا أحيطت الصفاة بالحجارة واجتمع فيها ماء المطر فهي المسطح وجمعها مساطح. غير أنهم استخدموا كلمة القِلات أكثر من غيرها للدلالة على هذه الظاهرة، وهذه الكلمة ماتزال مستخدمة في شبه الجزيرة العربية وكذلك في صحراء مصر الشرقية.

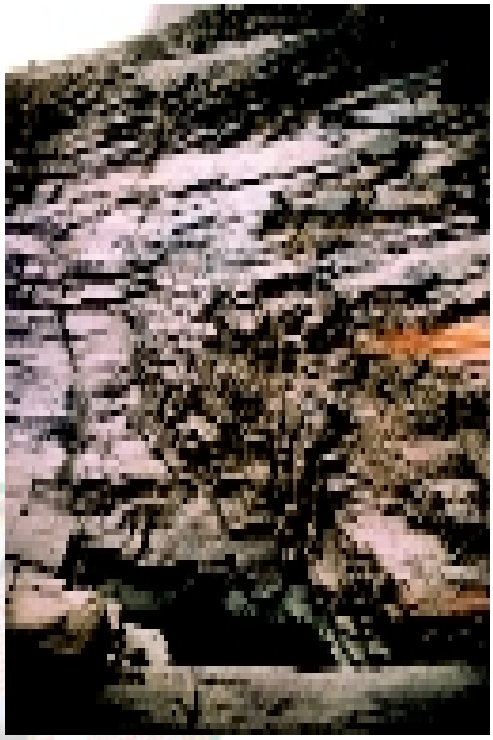

قلتة بمجامع الهضب في جبل بدوة

وتدل الكلمة عند العرب على أنواع مختلفة من الحفر مختلفة الأصول. ومن خلال المادة التي أوردها الأزهري عن القلات يمكن أن نُميّز بين نمطين منها؛ النمط الأول هو القلات الناتجة عن التجوية في الصخور الجرانيتية، وهي التي وصفها الأزهري بأنها «كالنقرة تكون في الجبل يَسْتَنْقع فيها الماء، والوَقْبُ نحو منه»، وهذا هو النمط الشائع، وينشأ عادة فوق الأسطح العليا للجرانيت المُتَصَفِّح وتكون القلات فيه عادة مستوية القيعان قليلة العمق.

ويكثر هذا النوع من الحفر في فرائد الجبال الجرانيتية في منطقة القصيم، وفي الكتل الجبلية في شمر، وسلسلة جبال الحجاز. ومن أمثلتها قلات جبل الشَّلالات الواقع جنوبي بلدة ضَرِيَّة، وتقع القلات فيه عند سفحه، حيث يستطيع سكان تلك المنطقة الاستفادة منها عقب الفترات الممطرة. كما توجد قلات أخرى في جبل اللَّجَأَة (تسمى الآن اللِّجَاه بحذف الهمزة) شمال غربي بلدة مِسْكة. ولا يزيد عمق هذه القلات عن نصف متر وقطرها عن ثلاثة أمتار. وتختلف قلات الشلالات واللَّجَأَه عن قلات جبل الجيب الواقع جنوب غربي جبل سلمى، يفصل بينهما وادي ذِيخين، فالأولى منقورة في مسطحات الجرانيت في فرائد الجبال القبابية الشكل، أما قلات جبل الجيب فتقع في التلاع تحت مدافع المياه منها، فهي تتأثر أساساً بحفر المياه المنحدرة إليها من عل، وتكون التجوية الكيميائية تالية للنحت الميكانيكي، ولهذا سُمِّيت القلت العُليا الشلالة ويدل الاسم على فعل المياه. ثم إن مياه تلك القلت تظل تنحدر مع التلاع صانعة قِلاتا أخرى يصل عددها لنحو عشر قلات صغيرة الحجم.

ويبدو -كما يقول ياقوت الحموي- أن تلك المنخفضات تنشأ عن التحطيم التفاضلي الذي يتركز في نقاط الضعف وعلى طول المفاصل. وعندما تنشأ الحفر وتتجمع فيها المياه، تتعرض صخورها لعمليات التغير الكيميائي، بخاصة عملية التميؤ التي تتم باتحاد بعض المعادن في هذه الصخور مع الماء حيث تتكون المعادن المائية، وتُفْقَد المواد المتبقية بالسَّفي أو التطاير المتكرر. وترجع الجدران الناتئة إلى بقاء الماء في الجزء الأسفل من الحفر فترة أطول من الجزء الأعلى. ويمكن القول أيضاً إنه مما يساعد على إتمام هذه العملية في الصخور الجرانيتية تباين المعادن التي تتألف منها هذه الصخور في استجاباتها لعمليات التجوية. فبعضها لا يتأثر بعمليات التجوية الكيميائية، ولكن تحدث لها عمليات تفتيت، وبعضها يتأثر بعملية التميؤ مكوناً الكاولين الذي يتكربن مكوناً كربونات البوتاسيوم، أو الصوديوم أو الكالسيوم. وبعضها لا يتأثر بالتجوية الكيميائية، ويتفتت إلى صفائح رقيقة، وبعضها يتأثر بعمليات التميؤ الكيميائية مكوناً أكاسيد الحديد. ويعني هذا أن نواتج التجوية للصخور الجرانيتية يمكن أن تكون خليطاً من الرمل والحجر والكاولين وأكاسيد الحديد وغيرها. وإلى بعض هذه المفتتات وبقايا التجوية كانت إشارة الأزهري عند ذكره للحُفَن واحدها حُفْنَةٌ، وأنها قَلْتَات يحتفرها الماء كهيئة البرك، وفي أسفلها حصى وتراب.

والحفنة: قلتة تكون في بطون أودية الجبال الداخلية، تدفع فيها السيول، ويمكث بها الماء طويلاً، ويردها الناس.

والنمط الثاني هو القلات الناتجة عن الإذابة في الصخور الجيرية التي أشار إليها ياقوت الحموي نقلا عن الأزهري عند كلامه عن قلات الصَّمان حيث قال «وهي نُقَر في رُؤوس قِفَافها يملؤها ماء السماء في الشتاء، وقد وردتها مرة وهي مُفْعَمة فوجدت القَلْت منها يأخذ ملء راوية وأقل وأكثر، وهي حُفَر خَلَقها الله في الصخور الصم. ولما كانت الصَّمان من أهم النطاقات الجيرية في الجزيرة، فإن العملية الرئيسية التي تساهم في تشكيل قِلاَت الصَّمان هي عملية الإذابة التي سبق أن ذكرنا أنها تؤدي إلى تكوين الدحلان.

وقلات الصمان ذكرها ذو الرمة في شعره إذ قال:

أمن دمنةٍ بين القلات وشارعٍ
تصابيت حتى ظلت العين تدمع

وقال:

ألا ليت أيام القلات وشارعٍ
رجعن لنا ثم انقضى العيش أجمع

وقال:

خلْيليّ عُوْجَا عَوْجَةً ناقتيكما
على طللٍ بين القلات وشارعٍ

ويضاف إلى هذا النمط ما ذكره الحموي نقلاً عن الأزهري عن الليث في وصف القَلْت بأنها حفرة يحفرها ماء وَاشِل يَقْطُر من سقف كَهْف على حَجَر أَيِّر صُلْب فَيُوقِب فيه على مَرِّ الأحقاب وَقْبَةً مستديرة. ويبدو من هذا الوصف أنه قريب من الشكل المعروف بالتافوني Tafoni الذي يتشكل في أنواع مختلفة من الصخور، كالجرانيت والصخور الرملية والجيرية وغيرها. ويتراوح قطر ذلك الكهف من سنتيمترات قليلة إلى عدة أمتار.

والقلات بصفة عامة تتكون في أضيق مسارات الأودية وأشدها انحداراً إلى مصباتها بين الصخور التي تكون في الجانب العلوي من القلتة لذلك فلا يمكن الوصول للقلت إلا مع أسفل الوادي أي من حيث مصبه، والقلتة عادة تحفظ المياه فترة طويلة حيث تغذيها المياه المتسربة بين الصخور، وموقعها يكون

الوقيط

فيما يسمى العجمة، والعجمة أضيق منطقة في الوادي ولا يمكن للإنسان الصعود منها إلا بشق الأنفس إما لوجود صخور كبيرة كما في جبال الحجاز أو لكون الصخور منكسرة ومرتفعة كما في قلات العارض.

ومن مسميات القلات الواردة في التراث الركوة، وهي القلتة تكون في الجبل، وتمتلىء بمياه الأمطار. والوقيط: المكان الصلب الذي يستنقع فيه الماء، فيمكث فيه، ويعرف عند بعض البادية باسم الوقر، ويختلف عن القلتة بأنه ليس في بطن الوادي وإنما في الأصفية. ولا يتغذى ماءه فما استنزف منه لا يعوض، ومنه الصغير والكبير الذي يصل قطره إلى ستة أمتار وعمقه إلى أربعة أمتار وتسمى في الشمال القصعة. قال ابن دويرج:

ما نسيت الصاحب اللي بالموده والهوى صافي لي
جا لي اصفا من غدير الوقر واحلا من حليب الناقه

وفي جبلي شدا الأعلى والأسفل بمنطقة الباحة توجد حفر في الصخور المرتفعة تسمى واحدتها الوقر تحتفظ بمياه الأمطار لمدة طويلة، ومنها ما هو لشرب الناس وهو العالي منها، ومنها ما هو لشرب الحيوان في المناطق المختلفة وأحياناً يسمى الوقر وكراً.

والبربك: حوض صغير على شكل حفرة في الأرض وعادة ما يكون في بطون الخباري تطؤه الإبل بأخفافها فيكون ملزماً للماء، ولا يستخدم هذا الاسم بربك إلا في الصمان، وكانت البادية فيما سبق تعتني به وتحفره لتجتمع فيه المياه فترة أطول (الشبانات ١٤١٨، ج١: ٩٤).

والمُقُوْرُ جمع مقر؛ وهي حفر عميقة في أرض صلبة تتجمع فيها مياه الأمطار، وتبقى مدة تزيد عن السنة. وتقع المقور في جهة عرعر حيث تقل الآبار أو تعدم فتتخذ تلك المقور لحفظ مياه المطر لوقت الحاجة. والغمار برك الماء تمتلئ من ماء السماء مثل الحياض. والنظيم اسم لكل ما انتظم من أي شيء كالأشجار أو الخباري أو القلات المنتظمة في مجاري الأودية بظهور الجبال ومنحدراتها نحو السهول.

والطفطوف تجويف في صخر منبسط يمتلئ بماء المطر يكفي لشرب شخصين إلى ثلاثة.

وقال مخلد القثامي في وصف عيني محبوبته:

العين طفطوفٍ عذي المشاريب
في ماقعٍ عسرٍ على كل هيّاب

ماقع: موقع. ومن أسماء القلات: الوقران والوقب جمعه أوقاب وهي حفر في الصفا تشبه القلات.